الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة الأدب العربي

مذكرة بعنوان :

التجليات الصوفية في الخطاب الشعري لنفري (المواقف و المخاطبات نموذجا)

إعداد الطالبتين:

* يحي زهرة

*الشبلي جهيدة

إشراف الأستاذ:

* حلاسة عمار

الموسم الجامعي :

2020/2019 م

شكر وعرفان:

نشكر الله تعالى ونحمده حمدا كثيرا على تسديد خطانا لإتمامنا هذا العمل المتواضع، لقوله تعالى: ﴿وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾.

الآية 07 في سورة إبراهيم.

نتقدم بالشكر الجزيل، وعظيم الامتنان والعرفان إلى الأستاذ المشرف "**عمار حلاسة**" الذي لم يبخل علينا بتوجيهاته ومعلوماته القيمة نسأل الله أن ينير دربه ويبارك في عمره وصحته إن شاء الله.

كما نشكر أساتذة وأستاذات قسم اللغة والأدب العربي كل باسمه ،لا ننسى أصدقائنا الطلبة الذين كانوا سندا لنا في مشوارنا الدراسي.

ونشكر كذالك كل الطاقم الإداري بكلية الآداب واللغات بجامعة قاصدي مرباح ورقلة

وأخيرا نشكر كل من ساهم من قريب و من بعيد لإتمام هذا العمل المتواضع

الإهداء

اهدي عملي هذا وثمرة جهدي إلى والدي الكريمين كنتما لي خير سند ومعين وأتمنى لكما العافية طول العمر والسنين وأبقاكما لنا الله سالمين معافين.

بعد مسيرة من العناء والتعب أتقدم بشكري لزوجي واسأل الله أن يجمع بيننا في محبة وصفاء.

إلى مهجة روحي وبلسم جوارحي ابنيا عبد الله وسراج لكما كل الحب والامتنان وكان التوفيق حليفا لكما في كل مكان.

إلى أخي الوحيد محمد جعلك الله قريبا مني غير بعيد اختايا عائشة وبثينة كل الحب لكما.

وفائق الشكر والعرفان للأستاذ عمار حلاسة لتكبده عناء القراءة و التصحيح .

إلى زميلتي ورفيقة دربي الجامعي جهيدة شبلي طيبة المحيا والأثر كان النجاح رفيقا لكي في كل أمر.

إلى تلك الدار التي جمعتنا بين جدرانها أتقدم بجزيل الشكر لها والى أهلها والى الأسرة الجامعية قسم اللغة والأدب العربي.

الزهرة

إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى البارئ الذي خلقني فأحسن خلقي وعلى المصطفى خير الخلق صلى الله عليه وسلم

إلى من رحل ويبقى القلب يذكره إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي طريق العلم وأحمل اسمه بكل افتخار أبي رحمه الله .

إلى منبع الأمل والحنان وبر الحب والأمان وسر وجودي على الدوام وبلسم الشفاء أغلى ما عندي في الوجود حبيبتي أمي أطال الله عمرها.

إلى عمتي التي كانت بمثابة أمي الثانية التي سهرت الليالي من أجلنا جعلها الله لها في ميزان حسناتها و رحمها الله.

وإلى شقيقي الوحيد" حمزة" الذي تعلمنا منه معنى الأمل والسعي وراء الصبر جعله الله شمعة تنير طريقنا.

وإلى الشموع النيرة والقلوب الطاهرة الرقيقة والنفوس البريئة إلى رياحين حياتي شقيقاتي حفظهن الله ورعاهن(أسماء، رحيمة، نور الهدى، إيناس).

إلى من شاركتني هذا العمل صديقتي وأختي التي كانت سندا لي في كل أوقاتي "زهرة يحي" أسعدها الله .

إلى حبيبات قلبي اللواتي كانوا مصدر سعادتي في كل الأوقات لم أشعر بالغربة معهم (روميسة، صفاء، فاطمة، انتصار،).

وإلى خالاتي وأخوالي وعماتي وأعمامي وأولادهم كل باسمه.

وإلى جميع من عرفتهم خلال مشواري الدراسي وكل الصديقات وكل من خطى قلمي...

جهيدة

الملخص

يعد الخطاب الصوفي خطابا فريدا من نوعه لكونه مشحونا بطاقات تعبيرية ومعان دلالية مكثفة الأمر الذي يستدعي عند التعامل معه إجراءات قرائية خاصة وذلك ومن اجل رصد تلك التجليات الصوفية والجماليات الفنية التي يزخر بها هذا الخطاب .

هذا هو الهدف الرئيس الذي سعينا من خلال هذه الدراسة إلى إبرازه وتسليط الضوء عليه في الأدب الصوفي على العموم وفي أدب النفري على الخصوص.

الكلمات المفتاحية الخطاب الصوفي ، التجليات ، الأدب الصوفي ، ألنفري.

ترجمة الملخص

The Sufi discourse is a unique speech because it is charged with expressive energies and intense semantic meanings, which requires when dealing with it special reading measures, in order to monitor these mystical manifestations and the artistic aesthetics that this speech abounds.

This is the main goal that we sought through this study to highlight and shed light on it in Sufi literature in general and in Al-Nafri literature in particular.

Key Word, Sufi discoures, manifestations, Sufi littérature, aliénation.

المـــــقـــــدمـــــــــة

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم و السلام على النبي الصادق الأمين، الذي جاءه الوحي بالحق الهادي المبين.

إن الحمد لله نحمده نستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

ولما كان التساؤل والفضول هو الدافع والمحرك لخوض غمار المجهول، من أجل التعقب والبحث في تلك السراديب، التي كثيرا ما حملت آثار أدبية نفيسة فريدة بحق، لطالما طالها غبار الإهمال، فبقيت ركحا من الزمن في غياهب النسيان. قابعة في الخفاء ليطبق عليها الصمت، ويفترسها الكتمان.

هذا الأمر الذي أفضى بنا أن ننتقي من بين هذه الآثار الأدبية المغمورة، حتى نساهم ولو بشق في تسليط الضوء عليها، وإعادتها إلى ميدان الدراسة لكي تصبح بذلك واضحة مشهورة.

وبعد الدراسة والبحث لم نجد أحسن من الأدب الصوفي الذي كثيرا ما عانى من هذا الإقصاء والإجحاف في حقه، على الرغم من أن التصوف يعتبر من المباحث المهمة في العلوم الإنسانية بشكل عام والعلوم الإسلامية بشكل خاص، فقد توغل أصحاب التصوف في مجال الفكر الذوقي، وتعمقوا في أمور الدين وحقائقه، الأمر الذي وصل بهم إلى إبداع نصوص صوفية تتجاوز التراكيب اللغوية المعهودة مشحونة بطاقات تعبيرية ودلالية المستفيضة، تنم عن الرؤيا المعمقة للكون والوجود، وكان لهؤلاء المتصوفة من العلوم نصيب كذلك، حيث وضعوا علوما خاصة بالفكر الصوفي،(كعلم

المقامات) و(علم الأحوال) وغيرها من العلوم المتضمنة داخل علم التصوف، والتي يجب على المريد الخوض فيها.

ومن بين هذه الشخصيات التي خاضت في غياهب المعارف النورانية والتي نستطيع القول عنها بأنها رافد من الروافد المساهمة في وضع الخامات الفعلية وتشكيل الأسس السلوكية لهذا العلم، حتى سطع اسمها وأصبح خالدا في فلك التصوف نجد عبد الله بن محمد ابن الحسن النفري المشرقي الأصل صاحب أعمق مؤلف أدبي كتب في العصر العباسي، يختص هذا الكتاب في المجال الذوقي العرفان والخوض في سلوك الصوفي والذي سماه بـــــ "المواقف والمخاطبات".

وبما أن التجربة الروحانية التي يعيشها الصوفي، لا تتعامل من الحس الظاهر بصورة الحقيقة وإنما تتخذه كوسيلة لإدراك ماهية الباطن.

إذن فالصوفي لا يعول كثيرا على المباشر لأنه لا يؤدي إلى المعرفة الحقة ولا يلبي رغبة الصوفي المتعطشة للقرب من الحق، وبالتالي فهو لا يكفي لإنتاج تعبير شعري أو نثري يدخل ضمن نطاق الأدب الصوفي، إذن فالتعبير المباشر السطحي لا يرضي أذواقهم، ولا يقوي دعائم الخيال لتفجير الآفاق الدلالية للألفاظ والعبارات، واكتشاف تراكيب لغوية مستجدة على خلاف المتداول الذي طاله الابتذال، إذن فالخطاب الصوفي يعتمد على الخلفية الخفية للنص ولا يتخذ من الظاهر سوى خيط وصل لا غير وهذا ما وجدناه عند شيخنا "النفّري".

*ويعود اختيارنا لهذا الموضوع بعينه لهاته الأسباب:

- رغبتنا في المعرفة أكثر عن شخصية النفّري، التي كثرا ما اكتنفها الغموض، والبحث كيف تجلي معالم الصوفية في خطاباته.

- إحياء التراث الصوفي الذي كان شبه منسي.

- قيمة الكتاب في مجال الفكر الإسلامي عامة والفكر الصوفي خاصة.-

- يعد النفري من أقطاب المتصوفة المغمورين، لهذا الأمر وقع الاختيار عليه كعينة لدراستنا.

- ولا يخفى على الدارس الصوفي الإسلامي ما يواجهه من قلة الدراسات الأكاديمية للمنهج العرفاني، أنه ليس من اليسير البحث والخوض في مجال الدراسات الصوفية، الأمر الذي يتطلب من الباحث التجلي بروح العزيمة والإصرار، والخوض في ثنايا البحث بكل ثقة واقتدار.

ولا يخلو طريق البحث من الصعوبات الكثيرة والعراقيل الكبيرة، ومن هاته الصعوبات التي واجهتنا خلال مسيرتنا البحثية نذكر:

- قلة المادة العلمية المتخصصة في التصوف عامة وفي التصوف الإسلامي خاصة.

- نقص المواجع والدراسات الأكاديمية التي تطرقت للفكر الصوفي عند النفري.

- صعوبة التعامل مع طبيعة النصوص الصوفية وهذا راجع لتعسر فهم التصوف بحد ذاته.

* وعلى الرغم ما واجهنا من تحديات فإن العمل استمر ، بعون الله أولا، وبفضل التوجيه والتصويب ثانيا.

* ومن المعلوم أن التصوف لم يكن حديث العهد، وإنّما عرفته الأمم الإنسانية منذ عصور حلت بفضل شخصيات عبقرية، اتسمت بالبصيرة النقادة والذهنية الوفادة، وأبحروا في محيط المعرفة ليتخلصوا من قيود الجهل والتبعية، فخلص لهم أمران حظ

سير أغوار المجهول والخفي، وحظ اقتناص المعرفة الروحية المحيطة بنواميس الكون الفسيح.

* لهذا فإن التقدم الذي مس صرح التصوف الإسلامي، ما كانت لتقوم له قائمة لولا الجهود الفعالة لهؤلاء المتصوفة الأفذاذ ، من تأمل في الوجود والموجودات، وخلوة مع النفس والذات، وعبادة لا تخلو من تفكر، تمعن في آيات الحق في الخلق مع التدبر.

* والنفري من بين هؤلاء الذين كان أهم أثر كبير في قيام أسس هذا الفكر العرفاني، لكن للأسف لطالما كان الغموض من نصيبه، لهذا وجب علينا نفض الغبار على هاته الشخصية وإعادتها إلى ميدان البحث.

كل هذه العوامل مجتمعة أفضت بنا أن نقف عند هاته الدراسة والخوض في هذا الدرب، ثم القيام بصياغة الإشكالية المطروحة وفق هذه الشاكلة: ما هي أهم السمات الصوفية التي ميزت أدب النفري؟ وكيف استثمرها في خطابه؟.

كما أن هذه الدراسة فرضت علينا اختيار المنهج التأويلي نظرا لطبيعة النصوص الصوفية وما يسمها من غموض وتعقيد لا يثبت عند قراءة واحدة، كما أننا استعنا بالوصف والتحليل كأداتين مساعدتين للحصول على نتائج أفضل، والأخذ بأيدينا إلى الغاية المنشودة .

* وقد اقتضى سياق هذه الإشكالية, المرور على هذه المحطات مقسمين دراستنا إلى ثلاث فصول كالأتي:

الفصل الأول: والموسوم ب(مفاهيم ومصطلحات)والذي يضم ثلاث مباحث:

المبحث الأول: والذي أردنا من خلاله إدراك مفهوم التصوف (لغة واصطلاحا)

المبحث الثاني : الوقوف على معنى التجليات من كلا الناحيتين (اللغوية والاصطلاحية)

المبحث الثالث:والذي ضم إطلالة عن حياة هذا الأديب الصوفي وما يكتنفه من غموض,تفصيلا عن كتابه المواقف والمخاطبات

الفصل الثاني: أردنا في هذا الفصل الإحاطة بأهم المعالم التي تتكون منها لغة الخطاب الصوفي على العموم ,وعند النفري على وجه الخصوص وفيه تطرقنا:

المبحث الأول: تعرفنا فيه على مميزات اللغة الصوفية من غموض وتعقيد, كما أننا أوردنا ذكرا لأهم المصطلحات والمعاني التي تتقاطع عندها النصوص الصوفية.

المبحث الثاني: فيه تعريف للرمز الصوفي واستخراج لبعضها من كتاب النفري,كما أننا تطرقنا للأبعاد الجمالية والفنية لرموز الصوفية.

المبحث الثالث: أوردنا فيه حديثا عن ظاهرة الجمع بين المتناقضات في الخطاب الصوفي, حيث أن كتاب المواقف والمخاطبات غني بهذه الثنائيات وقمنا باستخراج البعض منها

الفصل الثالث: والذي قمنا من خلاله برصد أهم الملامح التجديدية التي حملها خطاب النفري والذي تناولنا فيه :

المبحث الأول : عالجنا فيه النظرة الفلسفية في نصوص الصوفية والتي تتخطى المنطق المعقول لتتجاوزه إلى اللامعقول ,محطمة بذلك الأفق الضيق القاصر عن استيعاب المعنى الصوفي.

المبحث الثاني:وفيه وقفنا على خاصية جعلت من خطاب النفري مميزا ,وهي الذوقية الشعرية التي اكتست اغلب مواقفه ومخاطبته.

المبحث الثالث :في هذه المحطة عرضنا أهم المشارب والروافد التي تأثر بها أديبنا النفري ,وإعانته على تقديم نص فريد من نوعه.

كما استعنا في دراستنا هذه على جملة من المراجع نذكر البعض منها:

ـــ معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشاني.

ـــ الطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي .

ـــ شرح مواقف النفري لشيخ العارف بالله عفيف الدين التلمساني .

وفي الأخير نقول أننا لسنا من استهواه التنقيب والتقليب في الأوراق الشخصية لأناس رحلوا عنّا من أجل تحقيق تميّز بحثي أو سبق دراسي، بقدر ما هو تجوال في ذلك الزمن الجميل الذي غادرنا رغما عنّا، وما باليد حيلة لكي نعيده، لكن لربما كان في أقلامنا ما هو السبيل إلى ذلك.

كما أننا لا ننسى أن نتقدم بجزيل الشكر وأطيب العرفان للأستاذ المشرف "عمار حلاسة" نظرا للجهود الطيبة التي تكبدها من عناء القراءة والتوجيه والتصحيح.

كما أنه لا يغيب والامتنان الكثير والشكر الكبير لكل من تقدم بيد العون من قريب أو من بعيد لإتمام هذه الدراسة على أكمل وجه ونخص بالذكر الأسرة الجامعية لقسم الأدب العربي.

وفي الختام أسأل الله العليم الحليم، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يكون في كفة حسناتنا يوم لا ينفع المؤمن إلا ما قدمت يداه، وأن يجعل هذه الدراسة ذات نفع لكل من يقرأها، وأن يوفقنا ويوفق كل من سلك طريق العلم والبحث، وأن يغفر لنا ولوالدينا، ولمشايخنا وأولي الأمر منا وإخواننا، ولجميع المسلمين الأحياء منهم والأموات، أنه هو السميع القريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مدخـــــــــــــل

مدخل: التصوف بين الفكر والأدب

يدور فلك هذه الدراسة حول الخوض في غمار التراث الصوفي الذي أوجده لنا ثلث من أعلام الصوفية. وهو أدب فريد كله تعبير عن لواعج الأنفس وصدق الذوات ،ينقل تجربة الصوفية التي يكابدها الصوفي بكل حيوية وعمق, مصورا إياها تصويرا عاطفيا إنسانيا بامتياز وهذا التراث الصوفي ألف على شواكل عدة فمنها ما هو منظوم ومنها ما هو منثور، إلا أن أهم ما يوسم به هذا الأدب أن الغاية منه لم تكن إقرار منهج خاص وموحد للكتابة والقراءة بل على العكس تماما , حيث إن هذا كان بمثابة فسحة نفسية تزيل ضغط القيود والأغلال الفكرية المفروضة على كل الإبداعات الأدبية.

ولهذا كان مكمن التصوف القلب، فهو يجعل من المحبة أساسا لكل أمر ينبع من الذات.

وبذلك تبلورت نظرة الصوفيين للوجود، فهي الإرادة الوقادة المدفوعة بالعزيمة المتأججة ، لجعل الحب سبيلا لكل شيء تقول رابعة العداوية في تساؤل ودهشة:" أو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد؟ ولم يخشه أحد؟ " وقال سفيان الثوري لرابعة :" ما حقيقة إيمانك؟ فقالت: ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء، عبدته شوقا إليه "[1].

وكل المتصوفة ساروا على هذا الدرب فلم يكن اهتمامهم منصبا إلا على القرب، القرب من المحبوب المراد وهو الله تعالى.

والصوفي في خضم سلوكه التجربة الصوفية و الترقي في سلم المقامات والأحوال يواجه رحلة كلها مشقة وعناء من أجل الإحاطة بنواميس الكون وإدراك السر المكتوم،

[1] الدكتور عبد المنعم خفاجة، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب،(ب، ط)، ص7.

وجعله واضحا جليا معلوم، وفهم جوانب الحياة الشتى وحكمة الحق في الخلق " لذلك كان التصوف فطرة قائمة في النفس الإنسانية شأنه في هذا شأن التدين".[1]

من هنا كان العارف الصوفي صاحب نور يشرق دجاه على قلبه فيتيقن الحقيقة الكاملة بعينها.

والأدب الصوفي له باع طويل لمس عصورا كبيرة وإلا أن البدايات الفعلية حسب أقوال المؤرخين كانت مع القرن 2ه، ولأن الفرد لا ينتج أدبا ما إلا وكان لفكره حضور في ذلك.

فلا حصول لأدب بعيدا عن الفكر الذي يعد سراج الذي يضيء له الدرب وينير له السبيل، وهذا هو الحاصل مع الأدب الصوفي، حيث أن المرجعية الفكرية تبوأت حيزا مهما، أدت إلى تجسيد أبعاد الصوفية والسياقات المعرفية.

ولعل سبب هذا الأمر راجع إلى التأثر بالرؤية العميقة والمستفيضة في الكون الفسيح، هذه العوامل مجتمعة أفرزت لنا أدبا فريدا لم تطله أفاعيل الزمن.

هذا الأخير الذي تتباين فيه المذاهب و تتعدد فيه التيارات ، إلا أن الدارس لهذا الأدب لا يغفل عن حقيقة مفادها أنه ذو طابع إسلامي، بل الأكثر من ذلك يمكن القول بأن " الأدب الإسلامي بدأت تضح معالمه شيئا فشيئا، وبخاصة بعد أن ظهر الأدب الصوفي، الذي يعد من أروع صور الأدب الإسلامي ".[2]

وفي خضم الغوص في هذا التراث، نجد من غزارة في التأليف ما يعجز عن الإحاطة به باحث أو دارس، فهذا الأدب الذي قدمه لنا ثلة من أقطاب الصوفية، وخلفوه في آثارهم، حافل بروائع عرفانية ومشاعر روحانية تصور المناجاة الإلهية وعمق

[1] ـالمرجع السابق، ص9.
[2] ـالمرجع السابق، ص63.

الأحاسيس الإنسانية، في أحسن ما يكون التصوير ,ولا يخلو من صدق للوجدان، واستبصارا عميقا لا يحده زمان أو مكان، وهو أدب متجدد يتغير لبوسه عند كل قراءة تنبش في جدار معانيه الغزيرة، وأساليبه المتنوعة الكثيرة.

و من بين هذه المؤلفات التي خاضت في فلك التصوف نذكر:

(اللمع للطوسي، الرسالة القشيرية للقشيري، الفتوحات المكية لابن عربي، الحكم لابن عطاء الله، وقوت القلوب لابن طالب المكي).

والجامع المشترك بين كل هذه الآثار الصوفية أنها مشبعة بالعواطف الوجدانية بل هو أكثر من ذلك مغرق بالمشاعر والأحاسيس (فالحديث عن أهواء النفس الظاهرة والخفية، وشهوات القلب الواضحة والمضمرة، ونوازع الخير والشر وما يترقرق بينها من صور وألوان تمتزج حينا وتفترق أحيانا، تراث صوفي عجزت الفلسفة قديمها وحديثها أن تنازعه ألويتها[1].

وهو صادر عن نفس غاصت في رحلة التأمل في هذا الوجود الفسيح، ليأسرها ذلك التناسق الخلاب والنظام الحاصل في كل ما هو موجود، فهي رحلة كلها تأمل وتمعن في الخلق ينبث من مكامنها شوق وحب للحق، هذا كله ساهم في أن يمتلك الأديب الصوفي مفاتيح إبداع فريد ومتميز.

لكن للأسف لم ينل القسط الوافي والحظ الكافي حيث لم" يأخذ مكانه في الدراسة وحظه من البحث حتى اليوم، وبذلك حيل بين نهضتنا وبين أنبل ما صنعت الأقلام الإسلامية، فقد نابذنا بذلك الذخيرة الحية التي تخوض بمادتها معركة الحياة"[2]، ونجد الدكتور زكي مبارك يتحدث عن هذا الأمر بلهجة لا تخلو من الامتعاض بما حل

[1]- المرجع السابق، ص72.
[2]-المرجع السابق، ص37.

بالأدب الصوفي من إهمال نتج عن قلة الوافدين عليه من الدارسين والباحثين وعزوف أقلامهم عن الطواف بهذا الأدب العميق فيقول:" كل همهم أن ينقلوا ما قاله للفرنجة في علم النفس وما رأينا واحدا منهم فكر فيما كتب الصوفية عن الأهواء والشهوات، وأصول الخير والشر والضر والنفع ولو رجعوا مرة إلى إحياء علوم الدين أو حكم ابن عطاء الله لعرفوا أن هناك مصادر للدرس تصلح للنقل والاقتباس، ولنجرؤ مرة ثانية إن الشخصية الخلوقية لم تكن يوما من الشواغل الأساسية بقدر ما كانت في الصوفية، فلم يكتب علم للحق ولوجه الحق على نحو ما كتب الصوفية في الأخلاق، إن الرجل الصوفي حين يؤلف في أدب النفس يجمع بين الصورة القولية والصورة العملية فهو شعلة من اليقظة الروحية فيما يعمل وفيما يقول "[1].

وهو رأي على قدر كبير من الصحة فالإشكال الحاصل والواقع الذي لا مفر منه أن مسار الدراسة والتقصي أهمل العديد من المؤلفات الصوفية الثمينة، حتى أن البعض من هذه الآثار طاله الضياع ووضع في سراديب النسيان ، وهو أمر مؤسف لأن هذا التراث الصوفي حافل بجماليات إبداعية، حاكته أنامل رأت الكون بشاكلة عميقة اتسعت بصفة عالية دفعتها لإجلال هذا العالم الذي هو كله روعة وجمال .

وحال هذا الأدب كحال أي أدب آخر لا يخلو من مميزات وخصائص ولطولها سنكتفي بذكر أهمها وهي الصفات الثابتة في الأدب الصوفي عن غيره، ومن بين هذه الخصائص: يصطبغ هذا الأدب بمصداقية للأحاسيس ,وكونه "صادرا عن عاطفة قوية ومشاعر حية، وانفعال صادق، وتجربة عميقة، فلقد أحس القوم بنار الحب ، فاكتووا بلهيبه، وأرقهم ذكرى الوصل، وألهبت مشاعرهم كل ما أودع في نفوسهم من إلهامه، ووقفوا على نهج الورد يشعرون ولا يذوقون"[2].

[1]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص40.
[2]- الدكتور عبد المنعم خفاجة، مرجع سبق ذكره، ص 119.

والذي يستحق الوقوف عنده ,أن هذا الأدب بشقيه النثري أو الشعري، يتضمن بين دفتيه ألوانا وأغراضا مستجدة غير معروفة بالإضافة إلى الألوان السائدة والمألوفة، حيث نجد في هذا التراث الصوفي الحافل والمليء بروائع العديد من الأغراض كالمراثي التي جمعت قوة المعنى وإجادة السبك ,ومتانة الحبك ,والإتقان في الأداء, ودقة في التصوير, ومن بين هذه المراثي نذكر ما قاله عمر بن ذر في رثاء ابنه:(يا ذر، والله ما بنا إليك من فاقة وما بنا إلى أحد سوى الله من حاجة، يا ذر شغلني الحزن لك عن الحزن عليك، اللهم إنك وعدتني بالصبر عن ذر، صلواتك اللهم ورحمتك وقد وهبت ما جعلت لي من أجر على ذر لذر فلا تعرفه قبيحا من عمله اللهم قد وهبت له إساءته إلي فهب لي إساءته إلى نفسه، فإنك أجود وأكرم)[1].

ولا يقتصر الأمر عند الرثاء فقط بل يمتد إلى أغراض أخرى كالحكمة وهو لون عرف عند العرب لتميزهم بسدادة الرأي وصواب أحكامهم ورشادة نظراتهم الصادرة عن نفوس تشبعت بالخبرة والممارسة الطويلة " ولقد مزج الصوفيون الحكمة بصبغة روحية عالية وأكثروا من الحديث فيها، وأفاضوا في الكلام على تجاربهم الروحية مع الإشراق الإلهي، وخاضوا لجج هذه الرحلات الروحية مع الذات الإلهية "[2].

ولنتأمل في ابن عطاء الله حيث يقول:

" العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان .

متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك.

[1]- المرجع السابق، ص 74.
[2]- المرجع السابق، ص85.

ربما فتح لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب، فكان سببا للوصول" [1].

و السمة المشتركة بين كل هذه الألوان والأغراض أن ألفاظها متخيرة بعناية، بعيدة كل البعد عن الابتذال والرتابة ودقة في التجسيد و إجادة التصوير.

و الأغراض كثيرة في هذا الأدب لا يسع المقام على الإتيان في ذكرها كاملة فضلا عن ذلك سيتم التطرق إليها في متن هذه الدراسة.

[1]- المرجع السابق، ص90.

الفصل الأول

مفاهيم ومصطلحات

المبحث الأول: ماهية التصوف

أولا:المعنى اللغوي

إن معنى التصوف لم يخلو منه أي معجم لغوي، هذا الأمر الذي أفضى إلى تنوع التعاريف وتعددها حيث عرفه الزمخشري في أساس البلاغة " فلان يلبس الصوف والقطن أي يعمل منها، وكبش صافٌ و صاف وصوفاني ونعجة صافة و صوفانية كثيرة الصوف، وصاف الكبش بعد زمن يصوف ويصاف صوفاً ، ويقال لهم" آل صفوان و آل صوفان وكانوا يخدمون الكعبة ويتنسكون ولعل الصوفية نسبوا إليهم تشبيها بهم في النسك والتعبد، أو إلى أهل الصفة فقيل الصفية الصوفية بقلب إحدى الفاءين واو للتخفيف أو إلى الصوف الذي هو لباس العباد وأهل الصوامع من المجاز(خرقاء وجدت صوفا) أي الذي يجد مالا يعرف قيمته فيضيعه ، وأخذ بصوفة قضاه وصوف قضاه وصوف رقبته وقوف رقبته"[1].

أما التصوف مصطلح فقد صيغ " من مصدر الفعل الخماسي المصوغ من "الصوف" دلالة على لبس الصوف وثمة كان التجرد لحياة الصوفية "[2].

وفي لسان العرب جاءت بمعنى" الصوف للضأن وما أشبهه: الصوف للغنم كالشعر للمعز والوبر للإبل، والجمع أصواف، وقد يقال الصوف للواحدة على تسمية الطائفة باسم الجميع "[3].

[1]- أبو القاسم جار الله محمود عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح، محمد باسل، عين السود، دار الكتاب الهملية، بيروت ـ لبنان، 1998، ص572.

[2]- ماسينوس ومصطفى عبد الرزاق، التصوف، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1914، ص25.

[3]- أبو منظور، لسان العرب، المجلد الأول، بيروت ـ لبنان، (ب. س)، ص307.

واشتقاق كلمة التصوف حسب رأي البعض فإنها تحتمل " أربعة فروض: الأول أن يكون الصوفي منسوبا إلى الصوفة والثاني أن يكون منسوبا إلى الصوف والثالث أن يكون مشتقا من الصفاء والرابع أن يكون منسوبا إلى كلمة "سوفيا" اليونانية"[1].

والراجح بأن الصوفية نسبة للبسهم الصوف، فلكون ملبس الصوف يرمز للزهد والتقشف وترك الملذات، وفي هذا قالوا "أربع منكن فيه برئ من الكبر: من اعتقل البعير، وركب الحمار، ولبس الصوف وأجاب دعوة الرجل الدون "[2].

وكل هذه التعريفات التي تم ذكرها سابقا وإن اختلفت فهي تشترك في كونها تقوم على الزهد وتصفية السرائر وتنقية البواطن عوالق الدنيا.

التصوف اصطلاحا :

فالتصوف هو رؤية عميقة منبثقة عن العقيدة الإسلامية، يحتضن بين جنابته العديد من التيارات و المذاهب إلا أن معظمها يصب في مصب واحد وهو اعتزال الأمور الدنيوية، والسعي والمجاهدة من أجل نيل المطالب الأخروية والعبادة الدائمة وابتغاء الوصول لملك الملوك جل جلاله وعظم سلطانه.

والتصوف حسب أهل الحقيقة " هو التخلق بالأخلاق الإلـهية "[3].

أما التعريف الذي أشار له الدكتور زكي مبارك ف كتابه التصوف الإسلامي" إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية، والأساس أن يكمل الصدق ويسود الإخلاص بحيث لا تملك النفس أن تتصرف عما أمنت به واطمأنت إليه في عالم المعاني، وكذلك يتمثل التصوف في صور كثيرة فيكون في

[1]- زكي مبارك، مرجع سبق ذكره، ص53.
[2]- المرجع السابق، ص58.
[3]- عبد الرزاق الكاشاني، معجم اصطلحات الصوفية، تح، د. عبد العالي شاهين، ط1، دار المنار، القاهرة، 1992، ص174.

الحب، ويكون في الولاء، ويكون في السياسة حيث تقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان"[1].

ونجد الدكتور عبد المنعم خفاجة قد فرق بين التصوف والزهد على الرغم من أن كثيرين ربطوا بينهما حيث قال في الزهد:" هو أول حركات التصوف في الإسلام وقد انتشرت حركة الزهد في عصر الرسول وبعده وبخاصة بعد ثراء المسلمين وحكمهم للعالم القديم المعروف آنذاك"[2]. ليصل بعدها إلى الفرق الجوهري بينها "فالتصوف زهد في الدنيا لكسب رضا الله، والزهد بعد عن الدنيا لكسب ثواب الآخرة، والتصوف دخول في جمال الملأ الأعلى وروحه ورحمته، والزهد دخول في مجال التقوى خوفا من عذاب الله ونقمته وجبروته والتصوف فلسفة روحية في الإسلام والزهد منهج عملي من مناهج بعض المسلمين"[3].

والتصوف عند جمهور الصوفية "علم يعرف كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل أو غيبية الخلق في شهود الحق أو مع الرجوع إلى الأثر، فأوله علم ووسطه عمل وآخره موهبة فهو فلسفة حياة وطريقة معينة في السلوك يتخذها الإنسان... وعرفانه بالحقيقة وسعادته الروحية"[4].

أما سبب العجز عن تعريف التصوف تعريفا كاملا و ثابتا لكون" أغلب التعاريف المأثورة عجزت بصفة فردية عن الإلمام بحقيقة التصوف بكل أجزائها الخفية والظاهرة الإسلامية منها والأجنبية الدخيلة، وقد جاءت هذه التعاريف متقاربة تارة ومتباينة تارة أخرى تبعا لطبائع أصحابها و معتقداتهم"[5].

[1]- زكي مبارك، مرجع سبق ذكره، ص28.
[2]- عبد المنعم خفاجة، مرجع سبق ذكره، ص7.
[3]- المرجع السابق، ص7.
[4]- هدى فاطمة الزهراء، جمالية الرمز في الشعر الصوفي(محي الدين ابن عربي نموذجا)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، تخصص أدب عربي حديث، قسم اللغة العربية وآدابها، تلمسان، ص20.
[5]- عمامرة الساسي، مفهوم التصوف وتطوره، جامعة الوادي، ص78.

التجلي لغة:

ورد تعريف التجلي في صحاح الجوهري بمعنى "الجلي": نقيض الخفي، والجلية: الخبر اليقين، والجلاء بالفتح والمد: الأمر الجليّ، تقول منه: جلالي الخبر، أي وضح... وجلوت أي أوضحت وكشفت...

ويقال أيضا: جلى الشيء، أي كشفه، وهو يجلي عن نفسه، أي ضميره وانجلى عنه الهم أي انكشف، وتجلى الشيء أي تكشف"[1].

أما في معجم الصحاح فجذر الكلمة مادة (ج ل ا)" الجلي " ضد الخفي و"الجلية" الخبر اليقين، واستعمل فلان على "الجالية" أي على جزية أهل الذمة و"الجلاء" بالفتح والمد الأمر الجلي تقول منه جلالي الخبر يجلو جلاء أي وضح، و"الجلاء" أيضا الخروج"[2].

المفهوم الاصطلاحي:

فالتجلي عند جمهور المتصوفة "ما يظهر القلوب من أنوار الغيوب "[3] .

و هو لا ينال إلا بعد مشقة ومجاهدة وطاعة مستفيضة.

وهو على وجهين فأما الأول: "التجلي الذاتي وهو تجلي الذات وحدها لذاتها، وهي الحضرة الأحدية التي لا نعت فيها ولا رسم، إذ الذات التي هي وجود الحق المحض وحدته عينه، لأن ما سوى الوجود من حيث هو وجود ليس إلى العدم المطلق وهو اللاشيء المحض"[4].

[1]- الجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2005، ص179.
[2]-محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، معجم مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ص46.
[3]- عبد الرزاق الكاشاني، مرجع سبق ذكره، ص173.
[4]- المرجع السابق، ص173.

أي أنه واحد لا غير، لا يشبه شيء فهو جل تعالى "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير "[1] .

وجمهور الشريعة وأهل السنة يرون في هذا أمرا غير ممكن الحدوث ودليلهم على ذلك قوله تعالى: "ومكان لبشر أن يكلمه الله إلا من وراء حجاب "[2].

كما أنهم يحتجون على استحالة وقوعه بآية أخرى وهي قوله تعالى: "قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلماّ تجلّى ربّه للجبل جعله دكاًّ وخرّ موسى صعقا فلمّا أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين"[3].

أما التجلي على الوجه الثاني "هو الذي يظهر به أعيان الممكنات الثانية التي شؤون الذات لذاته وهو اليقين الأول بصفة العالمية والقابلية"[4].

أي أن هذا التجلي يكون بما يمكن أن تراه العين أو تدركه الحواس وهو التجلي الشهودي "وهو ظهور الوجود المسمى باسم النور، وهو ظهور الحق بصورة أسمائه في الأكوان التي من صورها، وذلك الظهور هو نفس الرحمن الذي يوجد به الكل"[5].

ومدار دراستنا هو عرض آراء الفريقين، من غير إثبات أو نفي أي رأي يخص أهل الحقيقة أو أهل الشريعة.

[1]- سورة الشورى، الآية 11.
[2]- سورة الشورى، الآية51.
[3]- سورة الأعراف، الآية 143.
[4]- عبد الرزاق الكاشاني، مرجع سبق ذكره، ص174.
[5]- المرجع السابق، ص174.

المبحث الثالث: إطلالة عن حياة النفري ومؤلفه المواقف والمخاطبات

المطلب الأول: حياة غامضة

النفري هو عبد الله محمد بن عبد الله، عاش بمصر واليها نسب وافته المنية 354ه، "ولكن اللقب الغالب عليه هو النفري نسبة إلى نفر، بكسر أوله وتشديد ثانيه وراء، وهي بلد نواحي بابل بأرض الكوفة، أما محمد بن عبد الجبار النفري فهو حفيد صوفينا واليه ينسب كتاب المواقف، على أساس انه هو الذي قام بترتيب أوراق جده الشيخ والتأليف بينها، أثناء حياته وبعد وفاته، دون الاهتمام بترتيب الزمني لتأليفها"[1]

والنفري لم يترك أثرا يذكر عن حياته أو شيوخه أو تلاميذه، وإنما تم نقل ذلك على السنة مردته التابعين له،و لربما سبب هذا اعتزاله الناس وكثرت حله وترحاله، وتفضيله حياة العزلة والخفاء، وهو راجع لكون النفري كان معاصرا لمحنة الحلاج آنذاك، الأمر الذي جعل كل المتصوفة يقومون بأخذ الحيطة والحذر من الوقوع في نفس المصير، مما أفضى إلى اعتناقهم الكتمان والتحفظ الشديد .

لهذا خلت معظم الآثار الصوفية الصادرة في ذلك الوقت، من ذكر للنفري يرجع إلى جملة من الأمور أهمها:

1ــ تأثير محنة الحلاج على جيل المتصوفة الذي تستر بالتحفظ والكتمان .

2ــ التخوف من الفقهاء الذين دأبهم أن يشنوا حملة قاسية من التكفير والتفسيق على أهل الطريق ويحرضوا السلطات عليهم

[1] عفيف الدين تلمساني، شرح مواقف النفري ، تحقيق جمال المرزوقي، تصدير د.عاطف العراقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م، ص 20.

3- تبني النفري أفكارا خاصة به تدعوه إلى الغياب التام وعدم الظهور و قد تكون هذه الطريقة خاصة بالنفري و أصحابه .

خلاصة القول : تبقى حياة النفري ومماته يكتنفهما الغموض، وليس لدينا دليل واضح على تفاصيلهما."[1]

كما أن الدارس لأدب هذا الشيخ الصوفي يلحظ بأن هذا الأخير لم يورد ذكرا لشيوخه أو تلاميذه وهذا أمر مخالف للعرف السائد آنذاك.

وصعوبة الإحاطة بحياة النفري راجع لتفضيله حياة الحل والترحال، كما أن اغلب المصادر التاريخية لا تجد فيها ذكرا لهذه الشخصية التي يكتنفها الغموض .

وبالرغم من تضارب أقوال الدارسين والباحثين حول موضوع حياة النفري (مولده ووفاته)، فإن مكمن الاتفاق بين كل هذه الأقوال يقع، في كونه شخصية فاعلة في بروز المذهب الصوفي الإسلامي .

مطلب الثاني: كتاب المواقف والمخاطبات

يعتبر هذا الكتاب رائعة من روائع الأدب الصوفي، وهو اثر قيم يضم بين دفتيه عصارة نظرة عميقة، تتسم بالشمول والإحاطة، ومعرفة مستفيضة لنواميس معرفية فريدة من نوعها ،وهو كتاب أميط اللثام عنه في وقت ليس ببعيد، ليثير معه العديد من التساؤلات والإشكالات، من ناحية التراكيب اللغوية المميزة تارة، أو من ناحية السياقات الدلالية المفعمة بالقراءات الرمزية تارة أخرى.

وفي كلا الأمرين لا يخلو التمعن في هذا الكتاب الذي يلفه الغموض من المتعة القرائية التي أبدعها النفري .

[1] وليد عبد الله الفكر الصوفي عند النفري تأمل في مقامي الوقفة والرؤية WWW.Maaber.Org

وكتاب المواقف والمخاطبات "كتاب واحد من قسمين متواصلين فكريا ومنهجيا....باستقراء مواقف النفري التي تصل إلى 78موقفا، نلاحظ أن الوقفة جوهر فلسفته الصوفية الذوقية ،ولما كانت الوقفة مقاما فوق المعرفة، وكانت المعرفة فوق العلم، فإن الواقف اقرب إلى الله من العارف ومن العالم، لان الواقف تجرد عن بشريته، أو أدرك هذا التجرد مع يقين المعاينة والمشاهدة، والنفري يرى أن معاينة الحق سبحانه ممكنة في دنيانا، لان رؤية الله في الدنيا ــ كما يقول ــ استعداد لرؤيته في الآخرة، وهو لا يقصر رؤية الله على تأملاته في معارجه القدسية العليا ، بل يراها أيضا قائمة مشهودة في كل شيء"[1].

وهذا المؤلف الثمين لم يكتب على يد النفري، وإنما قام بذلك حفيد ابن ابنته، حيث قام بجمع القصاصات وترتيبها لتصبح بشاكلة التي عليها الآن، و الكتاب على شقين فالمواقف تفتح بعبارة (يا عبد)، أما المخاطبات(قال لي) .

لكن للأسف لم تعنى مواقف ومخاطبات النفري بالعناية والدراسة من قبل الباحثين، وهذا بسبب الغموض الذي يحيط بشخصية النفري، كما الرمزية المغرقة، وعمق النظرة الفلسفية التي تسم هذا الكتاب حالت بينه وبين ولوجه ميدان الدراسة الأكاديمية.

ويعدّ المستشرق آرثر أربري أول من سلط الضوء على مؤلفات النفري وأماط اللثام عنها، حيث قام بجمعها ونشرها 1934،لتدخل بعد ذلك مدار البحث والتقصي .

ويعتبر النفري أول من استعمل مصطلح الوقفة والرؤيا في منهجه الصوفي، فهو يقصد بالوقفة "الواقف هو المنتظر، والمنتظر داخل لحظة تكاملت في زمن الذات الإلهية، وتهيأت وسكنت لتلقي الخطاب الإلهي المطلق، والواقف هو ذلك الذي تسلق سلم التجريد، والذي تجرد من التجرد ذاته فهو يدور في عوالم الغيب والشهادة، بدون حجب

[1] المواقف والمخاطبات وأثرها في حركة الشعر الحديث،WWW.alkhaleej.ae

أو أستار، ويحقق الواقف أعلى مراتب الفناء في سلم المقامات المعنوية عند أهل الطريق."[1]

أما الرؤيا فإنه يريد بها "أهم المنافذ المجردة والذاتية للارتباط بالخطاب الإلهي، ومشاهدة الحقائق المجردة، والالتقاء بالأسرار ,والرؤيا أعلى مراتب الكشف فهي تنزلات التجلي الإلهي ليرى الحقيقة"، كما هو وارد في القران الكريم "ما كذب الفؤاد و ما رأى"(سورة النجم)، فمقام الرؤيا آخر أبواب مقام الواقف في سلم المعنى الذاتي الإلهي، ومفتاح الرؤيا اللحظة المطلقة، بلا ذاكرة، ولا عنوان، ولا تسميات، فهي القدرة الذاتية والكمالية لاختراق كل شيء وسلب شيئيته، وإزاحة محجوبية كل الحواجب والموانع والأستار، وإزاحة الألوهية كل غيرية وسوائية عن ذاتها المستقلة فمن خلال مقام الرؤيا يستطيع الواقف أن يرى كل شيء من وراء كل شيء "[2]

هذه نبذة مختصرة فيما يخص حياة النفري ومؤلفه المواقف والمخاطبات، وسيأتي الحديث مفصلا عن هذا الأخير في الفصول الآتية.

[1] -www.maaber.org
[2] -المرجع نفسه

الفصل الثاني

التجليات الصوفية في الخطاب الشعري للنفري

المبحث الأول: لغة الخطاب الصوفي

لا يخلو أي خطاب من لغة تؤسس له، وهذا أول ما يقابلنا بعد التمعن و التدبر في الخطاب الصوفي، حيث أن هذه اللغة تمتاز بكونها تتعالى على ذهنية القارئ، كما أنّها تتسم أيضا بكونها مشحونة بطاقات تعبيرية مكثفة، الأمر الذي يجعل من قراءتها لأول مرة أمرا عسيرا، فلا يجد المتلقي من سبيل سوى قراءتها العديد من المرات، لعله يظفر في الأخير إلى فك طلاسمها وإدراك بواطنها، حيث "يتحرك نص النفري، صامتا في نطقه، وناطقا في صمته، فهو يستخدم اللغة لا لكي يعبر بالكلمات، فهذه عاجزة وإنما لكي يعبر بما يقدر أن ينسج بها من علاقات هي رموز وإشارات. اللغة هنا جوهريا مجازية إنها تخرج ما تفيده الكلمات عن موضعه من العقل، إلى مالا يمكن فهمه إلا تأويلا[1].

إذن فإن أهم ما يترصده الدارس لهذا الخطاب الأدبي الفريد هو ظاهرة "الغموض والتعقيد" التي سيأتي تفصيلها فيما يأتي:

المطلب الأول: الغموض والتعقيد

فالسمة الأولى التي تطالع الخائض في غمار هذا الأدب هي هذه الخصيصة "ولا مانع من أن يشرح الغموض بالغموض فنفي النفي إثبات[2].

فلا يخالفنا أحد في الرأي القائل بأن الخطاب الصوفي نشأ في ظل أفكار دينية مختلفة إلاّ أن هذا ليس هو مدار الحديث في هذه الدراسة، حيث أن مرتكز هذا البحث يهدف

[1]- أدونيس، الشعرية العربية ، دار الآداب- بيروت، 1985م ص65.
[2]- زكي مبارك، التصوف الإسلامي، مرجع سبق ذكره، ص81.

إلى إدراك الأبعاد الجمالية والتجليات الصوفية في الخطاب الأدبي الصوفي من حيث كونه خطابا يتسم بالإبداع والثراء الفني الذي تمتاز به اللغة المشكلة لهذا الخطاب.

إلا أن لغة الصوفية صعبة الاستيعاب نوعا ما، لكون معظم الأدباء الصوفية اتخذوا من الغموض طقسا لزاما على كل من أراد أن يعتنق مذهبهم، فحال الصوفي مغايرة تماما لحال الأديب العادي، فالأول يحل ويرتحل في غياهب المجهول في سبيل الحصول على الدليل، أمّا الثاني فإنّه لا يحرك ساكنا سوى أنّه يقوم بمقابلة الأمر وجها لوجه فقط هذا الأمر الذي جعل من الصوفي في أن يصنع لسانا خاصا لتعبير عن كنه التجربة الروحية، مولدا بذلك لغة عصية على الفهم، صعبة على الذهن، وفي هذا المقام نورد كلام النفري حيث قال:

" يا عبد قف بي فأنت جسري وأنت مدرجة ذكري عليك أعبر إلى أصحابي وقد نصبتك وألقيت عليك الكنف من الريح وأريد أن أخرج علمي الذي لم يخرج فأجنده جندا ويعبرون عليك ويقفون فيما يليك من دون الطريق، وأبدو ولا تدري من أين أمن قبلهم أم على مدرجتهم، فإذا رأيتني سرت وساروا ونصبتك على يديّ فمرّ كل شيء وراءك فمن عبر عليك تلقيته وحملته ومن جاز عنك هلك الهلاك كله"[1].

أما قوله:" يا عبد قف لي فأنت جسري وأنت مدرجة ذكري" فهو كلام غامض المدلول لكن عند الإحاطة بجزئياته فالمقصود منه: يا عبد أنت الموصل والناقل لقولي وأنت هو مخلدة حديثي إلا أن النفري لا يراهن بالثقة على الجميع فهو يميّز بين الذي يستطيع أن يبلغ سنان المعنى وفهم المراد أولئك هم أصحاب الحظ في نظره ، وبين الذي يقف على الأطلال فقط "فالحق يعتبر النفري الطريق الذي يعبره للتوصل إلى أصحابه أو

[1]- النفري،المواقف والمخاطبات، نشره آرثر يوحنا أربري، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1934م، ص 213-214.

الكتاب الذي يعبر لأصحابه بما يدرج فيه عن معانيه، كيف يمكن إذن أن نقول بعد قراءة هذه الكلمات إن من كتبها لم يكن مباليا بمصيره أو مصير ما كتبه، وهو نفس المصير إذا كان يعتبر نفسه أو كتابته جسرا يعبر عليه الخلق فتكتب لهم الحياة أو يجوزون عنه فيهلكون"[1].

والعديد من الدلائل المتناثرة في كتابيه هنا وهناك توحي كرهه الشديد ,والنبرة الممتعضة في ذكره من قبيل العامة، وإنّما هو يبتغي إقامة جسر بينه وبين أصحاب الحق، وهو يريد بذلك أن يتخذوه معبرا أو جسرا وهذا هو عين التعالي وهو أمر وارد الحدوث عند جمهور الصوفية على شاكلة النفري[2].

والغموض الذي يسمه دفع الكثيرين لتحامل عليه وإخراجه من دائرة أدباء الصوفية.

ويأتي أدونيس معارضا لهاته الآراء حيث يرى أن الغموض سمة يتميز بها النفري ونلتمس ذلك في قوله: "أن نص النفري يستقصي الحركة التي تتيح الانفصال عن مسار ما استنفذته الأسماء،وتتيح التواصل مع من لم يسمّ – مع الغيب، إن استقصاءه هو تحرّكه الدائم في المسافة التي لا تنتهي والتي تفصل أو تظل تفصل بين الكلمات والأشياء، وتكمن إبداعيته في الكشف عن العلاقات الغامضة في الكون الذي لا تنتهي– أي الذي ينتهي غموضه".[3]

ففريق من الدارسين تبنى فكرة تجاهل أدب النفري وهذا الرأي وإنما كان راجعا للغموض الذي يكتسي معظم كلامه وغرابة حديثه وإبهام فكره حيث "يبدو في مواضع شديد الخفاء وأحيانا يبدو متضاربا أو متناقضا في معانيه حتى كأنه وضع لينفر القارئ

[1]- سلمان بشير، بين مواقف النفري ومشاهد ابن العربي(السفر والرجوع إلى الحق والخلق)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2020م، ص6.
[2]- ينظر المرجع السابق، ص6.
[3]- أدونيس، الصوفية والسوريالية، دار الساقي، ط3، بيروت، 2006، ص186،187.

منه، لكنه يبدو في مواضع أخرى سلسا مبسوطا وجذابا إلى أبعد الحدود مع عمق معانيه ودقة مراميه، وكان بإمكان المعنى بكلامه أن ينتقي منه ما غزر معناه وسهل مآخذه وهو ما لم يحصل"[1]. وهذا لكون الغموض طقسا لزاما للمتصوفة.

هذا الأمر ترتب عنه ميلاد خطاب فريد مميز بكل ما للكلمة من معنى فهو ينقل الصراع الحاصل بين الذات والوجود هذه الأخير التي تسعى للسمو والارتقاء، ولا يتأتى لها ذلك إلا بعد خوض غمار جملة من التحديات والعراقيل.

إذن فهو ينبع من ثنايا تجربة تمر عبرها الذات متجاوزة كل ما هو صعب غير أبهة للمشقة والتعب، كل هذا من أجل إدراك الحقائق الروحانية والكشف عن الدقائق النورانية، فالأديب الصوفي المعايش لهاته من التجربة التي كلها مكابدة وعناء، يرمي من خلالها إلى الفرار من قيود الحياة المألوفة، ومتعلقاتها المعروفة، والتحرر من العلائق، وهجر العوائق، فالذات العارف في خضم خوضها هذه الرحلة تنتج لنا خطابا يتشكل من أبعاد دلالية،وآفاق تأويلية لها أصداء جمالية متميزة، وهذا يعزى للغة الغامضة التي تكون في أغلبها عصية على الفهم حيث أنها تمارس لعبة المراوغة على ذهن المتلقي فتأبى الخضوع و الإذعان.

في هذا الصدد نجد المرزوقي يقف عند أمر خالف به من سبقه من المؤلفين الذين خاضوا غمار البحث في واحة التصوف، وهو أن النفري لم يأتي على ذكر شيوخه أو تلاميذه، يضاف إلى ذلك كونه كان كثير الحل والترحال، ونفوره وابتعاده عن الناس ، الأمر الذي أفضى إلى صعوبة سبر أغوار شخصيته الأمر الذي جعل منه أديبا غامضا، ويورد لنا المرزوقي بيت شعر للنفري فيقول:

[1]- المرجع السابق، ص9.

أهيم بلاد الأرض والوحش رتع يطبق بي وجدي وشوقي مسامري [1].

إلا أن مسألة البت في قضية النفري أمر صعب نوعا ما، لكون الدرس الحديث قد بدأ من مدة وجيزة فقط في تسليط الضوء على النتاج الأدبي الخاص به، ولربما أفضت هذه الدراسات إلى قراءات مغايرة تماما لما قيل عنه سابقا، بعد أن كان الإجحاف سببا في إبعاده من فلك الأدب الصوفي، ولربما ساهم الدرس الحداثي في إرجاعه مشهورا بعد أن بقي ركحا من الزمن مغمورا.

كما نجد بعض الباحثين ممن أحالوا هذا الغموض إلى دافعية رئيسية كانت وراء إقصاء النفري من مدار الدراسة والتقصي، فالأول حسب رأي ألكسندر كنيش هو عدم انتماءه المذهبي لأي مدرسة صوفية أو تتلمذه على يد أحد شيوخ الصوفية المشهورين، ثانيا: هو الضبابية التي تطبع معظم أفكاره الباطنية التي كان لها وقع بعيد المدى بالنسبة لمن عاصره[2].

ونورد مثالا آخر للغموض الذي نسج منه أغلب ما ورد عن النفري في قوله عن موقف الوقف:" أوقفني في الوقفة وقال لي إن لم تظفر بي أليس يظفر بي سواي"[3].

فإن المراد من هذا الحديث أن لم يظفر بالقرب من الله ظفر به الضياع والتيهان، ونجد التلمساني يقول في هذا الصدد أن "النفري يرمي إلى عدم الظفر بالله يعني تمكن الموانع، والقواطع من الظفر به، وأراد بالموانع حجب العلوم والقواطع حجب المعارف"[4].

[1]- ينظر: جمال المرزوقي، فلسفة التصوف: محمد بن عبد الجبار النفري-بيروت، دار التنوير، 2009، ص28-29.
[2]- ينظر: سلمان بشير،بين مواقف النفري ومشاهد ابن العربي، مرجع سبق ذكره، ص10.
[3]- كتاب النفري،مصدر سبق ذكره، ص9.
[4]- ينظر: سلمان بشير،بين مواقف النفري ومشاهد ابن العربي، مرجع سبق ذكره، ص 55.

من هنا ندرك تمام الإدراك، وتتضح لنا الرؤية بأن لغة الخطاب الصوفي لا بوصفها وسيلة بل كغاية، حيث أن المتلقي هنا يلاحظ تمام الملاحظة بأن اللغة تراوغ فتمارس لعبة الحضور والغياب، مما يجعل منها ظاهرة فنية بامتياز تقوم بجذب القارئ وإعمال ذهنه بصورة مستقرة تؤدي به إلى استعمال عقله.

"وتبدو الكلمات في هذا الفيض كأنها تحاور نفسها فيما تحاور العالم، كأن النفري يخيطها، ثم ينسلها خيطا خيطا، ثم يعيد نسجها، كأنه لاعب بذاته وباللغة وبالوجود في حركة بهيّة نبيلة، آسرة، لم تتحها اللغة الشعرية لأحد قبله، كأن اللغة هي نفسها حركة الكائن- مصهورة في صوت أو في صائتات وسواكن، أو كأنها ذائبة في حركة التجربة"[1].

إذن فاللغة في المقام الصوفي صعبة المراس، ومن أجل إدراكها إدراكا كاملا لا بد من جهد وكد، والمسافة على قدر الماشي.

ومادامت لغة الخطاب مصاحبة للتجربة التي ينبثق منها، بل إنهما يسيران دوما جنبا إلى جنب ولا قيام لواحدة منهما إلا بحضور الأخرى.

فالأديب الصوفي هنا في رحلة دائمة عن الحقائق الكونية وسعيه الدؤوب من أجل إدراكه الحضرة الإلهية، وهو أمر بعيد عن مصافي إدراكنا الحسي، وهو ما أدى إلى قصور اللغة عن الإبانة والتصريح والاكتفاء بالإخفاء والتلميح وهذا هو ما صادفناه مع النفري.

كما أن النظر وفق رؤيا تتشكل من عمق البصيرة، والبحث عن أسرار الوجود والقوانين الكونية، و لواعج الذات هو من المطامح التي ترمي إليها التجربة الصوفية

[1]- أدونيس، الصوفية والسوريالية، مرجع سبق ذكره، ص191،192.

فهي تجربة تهدف إلى تقصي كل ما له علاقة بعوالم الغيبيات، الأمر الذي جعل الكتابة المنبثقة عن الذات الصوفية قائمة على نظرة مغايرة لما هو سائد ومألوف فشتان بين من يدرك ما هو محسوس وملموس، وبين من يدرك مالا يمكن إدراكه، ولهذا السبب ينبثق الاختلاف والغموض في اللغة كصورة من صور الإدراك المعنوي للوجود في الحضرة الإلهية.

والمتلقي هنا سيجد نفسه في صراع مع لغة تظهر المعنى تارة ليختفي تارة أخرى، فتلك الزئبقية، التي تتسم بها أغلب ألسنة أهل الحقيقة تدعو ذهنه للمكابدة والمجاهدة في سبيل إشباع الفضول المعرفي، واقتناص المنشود، لكن يبقى الوصول إلى المبتغى أمرا عويصا، لأن هذه اللغة ملكية يعنى بها جمهور المتصوفة فقط، ولا يحق لأي أحد خارج هذه الطائفة إدراك دلالتها والإلمام بخفاياها، ويستثنى من هذا إلا صاحب الذهن الفذ والبصيرة الوقادة "على أن هذا العجز عن الكشف والبوح هو ما يجعلها لغة شعرية برمزيتها وبمعانقتها للغموض، ولأفق يضيق باللفظ ويمتد ليشمل أفق وفضاء أرحب من الدلالات والمعاني المتداخلة و المتشابكة في الوقت ذاته"[1].

هذه هي إذن لغة الخطاب الصوفي ظاهرة أدبية متميزة يستدعي التعامل معها طرق خاصة، وهذا لكونها مغايرة لما اعتادت عليه الذهنية الذوقية، المتعلقة بالقارئ جاعلة منه في حالة من التوتر والحيرة، فإذا ما سبر أغوارها الدفينة، ما صادفه سوى التشفير والترميز .

[1]ـ منى جميات، لغة الخطاب الصوفي من هو في المعنى تعددية التأويل، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد الخامس عشر، 2015، ص57.

هذه الأخيرة لا يجد فيها إيرادا كاملا للمعنى، ذلك أن اللغة كوسيلة عاجزة عن استيعاب الحالة التي تعتري الصوفي حيث أن "الصوفي معرفته أوسع من لغته " [1]. من خلال هذا الحديث الذي يدفع الذهن لتساؤل حتما لما الخطاب الصوفي مشحون بالغموض والإبهام هكذا؟، فإن الجواب سيكون على هذه الشاكلة لكون المعنى إن حجب كان أبلغ وأرسخ في الذهن، لأن هذا الأخير عند الصوفي، لا يعطى على طبق من ذهب، وإنما على القارئ أن يستحث ذهنه ويعمله ويقلب فيه مرة بعد الأخرى حتى، يسبر أغواره الدقيقة ويحيط بأبعاده الجمالية والفنية، التي تتغير وفق تغير القراءات، وبحسب الزاوية التي سلط منها الضوء لتصبح آفاقا تأويلية متعددة، قد تصيب وقد لا تصيب .

"الأمر الذي يدعونا إلى القول بأن اللغة لا تأخذ منحا صوفيا إلا إذا كانت شاملة على جملة من الرموز والعلامات، التي تخفي أكثر مما تكشف وتداري معاني كثيفة تصب كلها في عوالم الباطن والوجود، وهذا الإغراق في الرمز هو الذي يمثل جوهر اللغة الصوفية وهو في الآن ذاته ما يمنحها شاعرية"[2].

المطلب الثاني: معاني ومصطلحات الصوفية:

لابد من الإشارة بأن الصوفية اصطلحوا لغة خاصة بهم، لهذا لا يخلو أي نص صوفي شعري كان أم نثري على حد سواء، على الإتيان بذكر هذه المصطلحات ذكرا ودلالة، وسنخصص في هذا الجزء من الدراسة أهم المصطلحات والمعاني التي تتقاطع النصوص الصوفية، والتي بدونها لا يمكن القول عن النص أنه نص ذو رؤية عرفانية، أو روحية صوفية.

[1]- نصر حامد، هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2002، ص145.
[2]- منى جميات، مرجع سبق ذكره، ص 58.

ــ القرب :ولأن الصوفي دائم الحديث عن ما يخالجه من حرارة وشوق البحث عن مطلوبه ومحبوبه، إلا وهو الحق وكيفية السبيل لتقليص تلك المسافة بينهما، وعناء البعد وطول المسير من اجل اللقاء، فلا يخلو أي أثر صوفي من حضور هذين المصطلحين حرفيا ودلاليا.

ولقد خصص النفري في مؤلفه، موقفا اسماه موقف القرب، حيث يقول: "أوقفني في القرب وقال لي ما مني شيء ابعد من شيء ,ولا مني شيء اقرب من شيء إلا على حكم إثباتي له في القرب والبعد"[1].

ونجد الحلاج يعبر أيضا عن ما يعتريه من لهفة الوصول، وألم البعد فيقول:

"فما لي بعد بعدك بعدما تيقنت أن القرب والبعد واحد "[2].

والقرب في اصطلاح الصوفية"عبارة عن فناء بما سبق في الأزل من العهد الذي بين الحق والعبد في قوله تعالى: "ألست بربكم قالوا بلى"[3].

ــ الوجد : ويقول النفري :"معارف كل شيء توجد به وأسماؤه من معارفه، وإذا سقطت معارف الشيء سقط الوجد به "[4].

والوجد هو ابتهال يعتري القلب، وانفعال يكتسي الروح، وهو من المصطلحات التي يصعب وصفها عند الصوفية نظرا للحالة التي تعتريه خلالها.

والوجد عندهم على ثلاثة أوجه :

[1] ـ كتاب النفري، مصدر سبق ذكره، ص2.
[2] ـ ديوان الحلاج، ومعه أخباره وكتاب الطواسين،وضع الحواشي وتعليق :محمد باسل عيون السود، القصيدة رقم 13، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص 16.
[3] - عبد الرزاق كاشاني، مرجع سبق ذكره، ص 161.
[4] - كتاب النفري، مصدر سبق ذكره، موقف التقرير، ص38.

فالأول: التواجد وهو استدعاء الوجد بالذكر أو الفكر، وهو اضعف المراتب، لأنه مكتسب وهو للمبتدئين في السلوك.

الثاني: مرتبة الوجد، وهو حصول الشعور الذي استدعاه السالك بتواجده، فإذا راوحه هذا الشعور، أو غلب عليه سمى "وجدا" فإذا استمر وتوالى على القلب فهو الوجود.

الثالث: وهو المرتبة العليا والأخيرة، وهو ذروة مقام الإحسان[1].

حيث يقول الحلاج معبرا وجده:

عجبت منك ومني

يا منية المتمني

أدنيتني منك حتى

ظننت أنك أني

وغبت في الوجد حتى

أفنيتني بك عني[2].

المقام: حيث يقول النفري في المخاطبة 2: "وأشهدك مقام كل شيء منه لتعلم أن لا مقام لك في شيء من دونه، إنما مقامك رؤيته وإنما إفرادك حضرته./ يا عبد إني جعلت لك في كل شيء مقام معرفة وإني جعلت لك في مقام كل معرفة مقام تعلق لتكون بي لا بالمقامات ولتكون عني لا عن النهايات"[3].

[1] www.nafahat-tarik.com الوجد عند الصوفية.
[2] ديوان الحلاج، مرجع سبق ذكره، ص10.
[3] النفري، مصدر سبق ذكره، المخاطبة 2، ص147.

والمقام : "هو استيفاء حقوق المراسم، فإنه من لم يستوف حقوق ما فيه من المنازل لم يصح له الترقي إلى ما فوقه، كما أن لم يتحقق بالقناعة حتى يكون ملكة لم يصح له التوكل، ومن لم يتحقق بحقوق التوكل، لم يصح له التسليم، وهلم جرا في جميعها، وليس المراد من هذا الاستيفاء،أن لم يبق عليه بقية من درجات من المقام السافل حتى يمكن الترقي إلى العالي، فإن أكثر بقايا مدرجات السافل ودرجاته الرفيعة، إنما يستدرك في العالي، بل المراد تملكه، على المقام بالتثبت فيه بحيث لا يحول فيكون حالا وصدق اسمه بحصول معناه بأن يسمى قانعا ومتوكلا، وكذا في الجميع فإنه إنما سمى مقاما لإقامة السالك فيه "[1] والمقامات على درجات مختلفة يسلكها المريد للارتقاء والصعود .

وقد ورد تعريف المقامات في اللمع في "باب في المقامات وحقائقها": حيث قال عنها الطوسي: "قال الشيخ رحمه فان قيل ما معنى المقامات يقال معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل، وقال الله تعالى: " ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد "، وقال وما منا إلا له مقام معلوم، وقال سئل أبو بكر الواسطي رحمه الله عن قول النبي صل الله عليه وسلم الأرواح جنود مجندة قال مجندة على قدر المقامات والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك "[2].

الموت: وهو في العرف الصوفي مخالف للمعنى السائد وفي اعتقادهم "هو قمع هوى النفس ولا تميل لذاتها وشهواتها ...وإذا مالت إلى الجهة السفلية جذبت القلب الذي هو النفس الناطقة إلى مركزها فيموت عن الحياة الحقيقية....فإذا ماتت النفس عن هواها بقمعه انصرف القلب بالطبع والمحبة الأصلية إلى عالمه، عالم القدس والنور والحياة

[1] عبد الرزاق الكاشاني، مرجع سبق ذكره، ص 107-108.

[2]- أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، اللمع، تحقيق د.عبد الحليم محمود ود.طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة مصر، مكتبة المتنبي بغداد، ص 41-42.

الذاتية التي لا تقبل الموت أصلا..." ولما رجع الرسول من جهاد الكفار قال: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا يا رسول الله صل الله عليه وسلم وما الجهاد الأكبر؟ قال: مخالفة النفس."[1].

ويقول النفري: "أوقفني في الموت، فرأيت الأشياء كلها سيئات، ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء، ورأيت الغنى قد صار نارا ولحق بالنار، ورأيت الفقر خصما يحتج على صاحبه، ورأيت كل شيء لا يقدر على شيء، ورأيت الملكوت خداعا، وناديت يا علم فلم يجبني، وناديت يا معرفة فلم تجبني، ورأيت كل شيء قد أسلمني، ورأيت كل خليقة قد هربت مني وبقيت وحدي، وجاءني العمل فرأيت فيه الوهم الخفي، والخفي الغابر فما نفعني إلا رحمة ربي"[2].

ويشرح عفيف الدين التلمساني فيقول: "هذا التنزل أيدك الله مبنى على قواعدهم فافهم القاعدة تفهم المراد إن شاء الله، والقاعدة المذكورة أن القوم لا يرون الفاعل إلا الله تعالى وذلك بمعنى أنه لا وجود لغيره تعالى إلا في الوهم، وأن الموت عنده إنما هو هذا المشهد، لا إنه عندما أوقفه في الموت أماته إذ ذاك أماته فرأى ما يراه الميت بعد الموت"[3].

فهو لا يرى في الموت نهاية، بل على العكس ما هو بداية لحياة جديدة، وفرار من الخلق نحو الحق جل جلاله ، وفي هذا المعنى يقول الحلاج:

اقتلوني يا ثقاتي إن في قتلي حياتي

ومماتي في حياتي وحياتي في مماتي

[1]- عبد الرزاق الكاشاني، مرجع سبق ذكره، ص111.
[2]- كتاب النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الموت، ص 34.
[3]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص 222.

إن عند محو ذاتي من اجل المكرمات [1]

وهو في المعنى لا يخالف النفري، فالموت هو الحياة بالنسبة لهم، فالبقاء الدائم بجوار المحبوب، والخلود الدائم بعد نيل المطلوب، والانتهاء عند حضرة ملك الملوك.

هذا باختصار عرض لبعض المعاني والمصطلحات التي تقاطعت عندها النصوص الصوفية، وأصبحت بذلك نقاط مشتركة بينهم

المبحث الثاني جمالية الرمز:

المطلب الأول: الرمز عند الصوفية:

يتميز الخطاب الصوفي بكونه ذو خصوصية أدبية فريدة من نوعها، وهذا راجع لتفرد التجربة الصوفية في حد ذاته، الأمر الذي يجعل اللغة العادية قاصرة لا بل عاجزة عن استيعابها، فلا سبيل لمدرات ذلك القصور سوى الاستعانة بالرمز والإشارة، حتى إنهم

[1] ديوان الحلاج، مرجع سبق ذكره، ص125.

اصطنعوا لغة خاصة بهم لا يدركها القاصي ولا الداني، بل لا يعلمها سوى من اعتنق مذهبهم.

فالرمز الصوفي لا يلوح فيه أي خلاف عن الرمز الأدبي العادي سوى أن الآخر أكثر منه غموضا وتعقيدا، "يحمل في طياته معنى باطنيا عميقا، لا يمكن الظفر به، يماثل الإشارة في معنى الإخفاء، وينطوي على أسرار روحية، ومعانيه ربانية لا يمكن كشفها إلا لمن فتح الله عليه من أهل الإشارة بهذه الأسرار"[1].

ولأن أهل الظاهر كثيرا ما يرمون أهل الحقيقة بالزندقة والكفر، لا لشيء سوى لعجزهم عن سبر أغوار لغتهم. وينقل "الطوسي عن أبي حمزة الصوفي، أنه كان إذا سمع مثل هبوب الرياح، وخرير الماء، وصياح الطيور، فكان يصيح ويقول: لبيك ؟،فرموه بالحلول لبعد فهمهم في معنى إشارته، وذلك أن أرباب القلوب ومن كان قلبه حاضرا بين يدي الله ويكون دائم الذكر لله فيرى الأشياء كلها بالله ومن الله والى الله ،فإذا سمع كلامه فكأن ذلك سمعه من الله"[2].

ومن أهم الرموز التي نجد لها حضورا في النصوص الصوفية نذكر: رمز المرأة، والخمرة، والحيوان، والأعداد، تعد هذه الأخيرة من بين أهم الرموز التي لا يخلو منها أي خطاب صوفي.

ومن بين الرموز التي تناولت رموز الحيوان نذكر رمز الطير، فقد أبدع الصوفية في خلق دلالات لهذا الرمز "وهي كما نعلم طائر خرافي، للهباء الذي فتح الله فيه أجسام العالم، وبالحمامة الزرقاء التي كثيرا ما توصف بالطوق، إلى النفس الكلية، والروح

[1] .حمزة حمادة، الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني، أزمير تركيا، 2014، ص6.
[2] أبي نصر السراج الطوسي، اللمع، مرجع سبق ذكره، ص 495.

المنفوخ في الصور المسواة، وبالغراب من حيث بعده وسواده، إلى الجسم الكلي الذي هو في غاية البعد عن عالم القدس..."[1].

وينظم ابن عربي أبياتا في رمز الطير فيقول:

أطارح كل هاتفة بابك على فنن بأفنان الشجون

فتبكي إلفها من غير دمع ودمع الحزن يهمل من جفون

أقول لها، وقد مسحت جفوني بأدمعها تخبر عن شؤوني

أعندك بالذي أهواه علم وهل قالوا بأفياء الغصون[2]

هذا تمثيل لأحد الرموز التي نالت حيزا في هذا الأدب، "ولقد وظف الشعر الصوفي الطير واستوحى منها الكثير من المعاني، وخاصة وقد ورد ذكرها في مواضع كثيرة من القران الكريم، ولعل أشهرها ذكر قصة الهدهد مع نوح ثم مع سليمان عليها السلام "[3].

وقد ذكر هذا الموقف في سورة النمل، في قوله عز وجل:(تفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين)[4].

هذا باختصار شديد عن ماهية الرمز الصوفي، والمسوغات التي أفضت إلى استعماله وسيأتي التفصيل فيما يأتي عن أبعاده الفنية وجمالياته الدلالية في نصوص النفري.

المطلب الثاني :جمالية الرمز الصوفي:

[1]- عاطف جودت نصر:الرمز الشعري عند الصوفية، ط1، دار أندلس للطباعة والنشر والتوزيع، سنة 1978، ص 298.

[2]- محي الدين بن عربي، ذخائر الأعلاق وشرح ترجمان الأشواق ، دار الكتب العلمية ، ط2، ص 120.

[3]- .حمزة حماد، الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني، ص19.

[4]- النمل :الآية 20.

ومن الحلل التي يكتسي بها الخطاب الصوفي نجد للرمز حضورا كبيرا، هذا الأخير الذي يفرض نفسه بقوة في جل ما يتلفظ به جمهور الصوفية، لكون" الخطاب الصوفي خطاب إبداعي رمزي متعال، ينحدر من عالم مثالي، يترفع عن المتناهي وصولا إلى اللامتناهي، يتوسل بالإشارة عن ضيق العبارة"[1].

وهذا ما يقابلنا عند النفري الذي وصل بالرمز مبلغا لم يصله أحد قبله، لأن الرمز كما هو معلوم متضمن داخل السياق يحمل بداخله كما يتعلق بذات الصوفي من معتقداته ومرجعياته، كما يحيل أيضا إلى بواعثه النفسية أو الاجتماعية، فالرمز مشحون بطاقات ودلالات متعددة، لأنه ذو معنى خفي مضمر، لا يكون إلا لمن هم من أهل جلدته (أهل الحقيقة).

فقد اعتمد النفري كذلك في كتابه "المواقف والمخاطبات" على الأسلوب الرمزي أو الإشارة في التعبير، فالصوفية كانوا يستخدمون الرموز والإشارات الخاصة بهم كما أسلفنا في الذكر، قصد إخفاء أذواقهم والتستر بمعتقداتهم وشيخنا النفري واحد من بين هؤلاء الصوفية أصحاب الأسلوب، فجاءت مواقفه ومخاطباته، غامضة منغلقة على الفهم بشاكلة عسيرة، وهذا بسبب استعماله للأحاجي واصطناعه للألغاز، وقد تحدث عن هذا محقق شرح مواقف النفري "جمال المرزوقي" حيث قال: "وأسلوب النفري في مصنفاته شديد الرمزية، يخرج بنا عن اللسان المعتاد، وعن المنطق المألوف، ويقف على هوة، لأن عالم النفري عالم غربة مجهول لدى كل دليل، فمن ذا الذي يجرؤ على أن يمسك بيد ليقوده، ويكشف له عن خفاياه ؟ الطريق يمر عبر غابات من الرموز وهذه الغابات ليست على وجه الأرض لنشق فيها سبلنا، إنها تحت الأرض ذوقي مدام التصوف، رغبة وشوقا للاتحاد بلانهاية، أو إنسا وقربا من الخالق الأعظم، أو

[1]- شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، بلاغة الرمز في التائية الكبري لابن الفارض، د، موفق مجيد ليلو...

حضورا مع ساعته القدسية ...فإننا نذكر مخاطبات الله لنفري هي مجرد سياحة في أعماق كل واحد منا...ولهذا فهي نصوص لا يمكن شرحها بطريقة منطقية، لأن للمنطق والكلام هنا بلا حدود[1].

يقول النفري في موقف معرفة المعارف: "صفة في رؤية قلبك وعقلك، هو أن تشهد يسرك كل ملك وملكوت، وكل سماء وارض، وبر وبحر وليل ونهار ونبي وملك وعلم ومعرفة وكلمات وأسماء وكلما بين ذلك يقول ليس كمثله شيء وترى قوله ليس كمثله شيء هو أقصى علم ومنتهى معرفته"[2].

نرى في هذا النص إشارة صوفية دينية، فالنفري يصور بلغة رمزية ويوظف التغيير عبر بنية الحوار الذي يجريه بين الكون وبين المعارف، فترى أن هذا الحوار المتخيل يوسع دائرة الإشارات، ومن ثم كانت هذه الإشارات هي مدرك المعارف، التي لا تضاهيها معرفة أخرى .

يقول النفري: "...وقال لي أذنت لك في أصحابك فأوقفني، وأذنت لك في أصحابك بيا عبد، ولم آذن لك بأن تكشف عني، ولا بأن تحدث بحديث كيف تراني"[3].

والمراد أنه آذن له أن يقول ويخبر أصحابه، بأنه قيل له أوقفني وقيل بيا عبد، ولم يؤذن له في أن يشرح للمحجوبين شهوده، كيف لأنهم لا يقدرون على إدراك ذلك، ولا يرجعون إلى الإيمان بل كفران"[4].

33 - عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص21 -22.
[2]- كتاب النفري، مصدر سبق ذكره، الموقف11،ص19.
[3]- المصدر السابق، موقف محضر القدس الناطق، ص107.
[4]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص 456.

فقوله أوقفني إشارة إلى كتاب المواقف، وقوله يا عبد إشارة إلى كتاب المخاطبات، فهو يميل إلى الرمز والإشارة، في كل ما يرد إلى قلبه من لمحات وخواطر ذاتية ترد على قلبه ووجدانه، ليحجب رؤيته وكشفه حقيقة الذات الإلهية عن العوام، وقوله في موقف الصفح الجميل: "جد وجد الحضرة على أي صفة جاءك الوجد فادعها وادع موصفاتها إلى وجدك فإن استجابت لك، وإلا فاهرب إلى الصفة التي تجد بمقامك فيها وجد الحضرة فإن لم تهرب فارقك وجد الحضرة وتحكمت عليك صفات الحجاب وموصوفاتها"[1].

وقوله في موقف بين يديه: "وقال لي أكشفك لي ولا تغطك فأتك فإن تغطيت هتكتك، و لئن هتكتك لم أسرك، فتغطيت ولم ابرز، وتكشفت ولم أتغط فرايته فعرفته ورأيت نفسي فعرفتها، فقال لي أفلحت وإذا جئت إلي فلا يكن معك من هذا كله شيء لأنك لا تعرفني ولا أعرفك"[2].

فيتبين من هذين النصين مدى الغموض والاستغلاق الذي أدى إلى هذه الرمزية، إذ نجد لكل كلمة عباراتها وإشارتها، فلكل حرف مغزى ولكل عبارة فنصوص النفري تحفل بنماذج من الرموز الحسية ذات الإيحاء القوي على مدلولاتها بما يرسمه من صور خيالية لها .

وإذا أردنا إيراد شواهد التي تبيّن مدى جمالية الرمز عند النفري فلا نجد أحسن من موقف البحر لتدليل على ذلك، حيث نرى أنه استعمل لفظ البحر في دائرة الرمز الصوفي فقد خصص له موقفا وسماه بموقف البحر، والملاحظ بأنه مشبع بالغموض

[1]- كتاب النفري، مصدر سبق ذكره، موقف 43,ص73

[2]- المصدر السابق، موقف بين يديه، ص73.

كما أنه صعب في الفهم، لكونه مغرقا بالرمزية التي تضمنتها معظم عباراته، فيقول النفري:

" أوقفني في البحر، فرأيت المراكب تفرق والألواح تسلم، ثم غرقت الألواح وقال لي لا يسلم من ركب "[1].

وهذا الموقف هو الحجر الأساس لكل مريد، ونقطة البداية لتصويب السلوك وتصحيح المسار، معنى ذلك أن البحر يرمز للدرب المنشود لسلوك فيه، أما المراكب والألواح فهي الآلة المستعان بها للعبور، لكن كلاهما لا يفلحان في الأخذ بيد المريد لسلوك والعبور، وقصد بالمركب العبادة، وأريد باللوح القلب وفي ذلك" تبين هل السلوك بالعلم أولى أم السلوك بما يحمل القلب من الشوق"[2].

فالرموز هنا موحية، فشارح المواقف يرى أن البحر رمز لما يقطعه العبد ويسافر فيه أثناء سلوكه والمراكب رمز لما يتخذ طلبا للنجاة والألواح رمز للأسباب الضعيفة والموج رمز للأحكام والساحل رمز لعالم الحجب والدابة كناية عن الشبهة[3].

وكأنّ النفري أراد أن يقول بأن المركب ما يستخدم للنجاة لكنها تتحطم لتصبح ألواح هي الأخرى، ولعله أراد بالمراكب العبادة الواضحة الجلية وأما الألواح فهي العبادة القلبية وهي أداة نجاة أقل نجاعة من الأولى لكن حسب ما يرى النفري أنها أقوى وذلك بقوله:" والألواح تسلم "، وهو يقصد بذلك بأن الأخذ بالسبب الضعيف تخلي صريح عن الآلة والاعتماد اعتمادا كاملا على الحق وهو الله، على عكس الذي يعتمد على السبب القوي فيستعين بالآلة، متناسيا بأن الله بيده مقاليد كل شيء وهذا ما يؤكد عليه عفيف

[1]- المصدر السابق، ص7.
[2]- العارف بالله الشيخ عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص53.
[3]- المرجع السابق، ص99-100-101

الدين التلمساني بقوله: "وذلك لأن راكب الألواح في هذا البحر لم يعتمد على الأسباب اعتمادا كليا، لأن الألواح أسباب ضعيفة فكأن راكبها اعتمد على المسبب الحق تعالى لا عليها، وأن تلبس ظاهرا بها، وحال هذا الشخص يشبه حال من يعبد الله تعالى، ولا يعتد بعبادته عنده، ومعنى غرقت الألواح أي تلك الأسباب أيضا"[1].

ومعنى هلاك الألواح أيضا ، لكونها أسباب ضعيفة هي الأخرى، وقراءتنا لهذا القول كفيل لدحض هذا الغموض، فالمريد عليه أثناء خضوعه غمار التجربة الصوفية أن لا يعتمد على المراكب كالعبادة الظاهرة اعتمادا جازما، وأن يراهن على الألواح مراهنة قاطعة، وإنما عليه الأخذ بالأسباب مع التوكل وصفاء النية، وهذا ما يؤكد عليه قوله: "وقال لي: لا يسلم من ركب".

أما قول النفري:" خاطر من أسلم نفسه ولم يركب "[2].

ومعنى ذلك أن عدم الأخذ بالأسباب أمر شديد الخطورة لأن فيه عوارض تعترض التارك وهو أشد فضاعة " وذلك لأن المتسبب إنما حذر من السبب من كونه بنفسه، وسعيه لا بربه عز وجل في الترك إذا تركه إياه لا يخلو من أن يكون تركا هو بنفسه قاصده وفاعله "[3].

فالترك يكون ذاتيا مقصودا وهو مستنكر جملة على السالك لكونه فعلا قبيحا مذموما، فالرمز هنا حمل دلالة لا تتضح إلا بإسقاطها إسقاطا تمثيليا وهذا راجع للبصيرة الفذة التي يتمتع بها النفري، لأن" الرمز الصوفي مغرق في الذاتية إذ للصوفية رموزهم الخاصة التي تنطوي على نفسها وتنغلق فتجعل النص في الكثير من الأحيان إلى

[1]- المرجع السابق، ص53.
[2]- كتاب النفري، مصدر سبق ذكره، ص7.
[3]- الشيخ عفيف الدين التلمساني،مرجع سبق ذكره، ص54.

طلاسم تحتاج إلى فك التشفير وهو يتأتى من رحم الصورة التي تنمو في ظل الخيال، وللعناصر الفنية الأخرى لنص، والتي تساعد على تجسيد الرمز وعلى وضعه ضمن ساحة الحواس، ولعل هذه (الرمز)التي طبعت أشعار الصوفية هي التي جعلت الشرّاح يتعسفون أحيانا في التأويل"[1].

أما قوله: "هلك من ركب وخاطر"[2]، ففيه تلميح على أن الركوب سبيل للهلاك، أما المخاطرة فإنها تعين على النجاة والسلامة، فأن تقدم على أمر خير من التردد وهذا هو عين التسليم والتوكل بأن الله يعين كل من يسعى على عكس الذي يكتفي بالقول فقط.

وتبسيطا لما سبق فإن الأخذ بالعبادة مع الاعتداد بها قلبا وقالبا هو السبيل للخلاص ونيل المطالب الدنيوية والأخروية.

أما قوله:" ظاهر البحر ضوء لا يبلغ، وقعره ظلمة لا تمكن، وبينهما حيتان لا تستأمن"[3].

فكما ذكرنا سابقا فإن البحر عبارة عن رمز للمسالك التي تقابل المريد، أما الضوء فهو الغاية المرجو السعي من أجلها أو هو الساحل، أما القعر المظلم فهو الغرق في ثنايا الباطن والانحراف عن السبيل، أما الحيتان فهي العوارض الخطيرة التي تعترض المريد لثنيه عن السبيل الصحيح والصائب للوصول إلى المبتغى، والمتأمل هنا جيدا يصل إلى نتيجة مفادها أن تعالي المتصوف عن عالم الخلق عند توجهه إلى الحق يتطلب منه الاستعانة بكل ما تدركه الحواس لنقل تجربة من عالم اللامادي إلى عالم المادي وهذا ما قام به النفري هنا، " إن الصوفي لما كان في طبع الإنسانية يتعاطى

[1]- شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات، مرجع سبق ذكره.
[2]- كتاب النفري، مصدر سبق ذكره، ص7
[3]- المصدر السابق، ص7.

المحسوسات المادية...فإن غيبته في عالم المجرد نتيجة مجاهداته ورياضته الروحية، إنما هي لمحة روحية خاطفة يعود بعدها لما يحيل إليه،...الرمز هنا يأتي لإطالة هذا الإحساس أولا...كما أنه ثانيا قد يؤول إلى قوة يستعين بها الصوفي إثر عودته من مجاهداته الروحية التي لا بد أن تكون قد أضعفت قواه البدنية إذ يسترجع بهذه الصور الرمزية وعيه أو لنقل واقعه المادي من جديد... فالرمز بهذا التفسير له يكون قناعا مصطنعا تستتر وراءه المعاني خفية أو غيرة، ولن يكون أيضا شفرة خاصة فقط، بل تصبح أيضا واقعا يستند إليه الصوفي،من أجل استرجاع توازن نفسي تسرد به القوى والمدركات بعد انفلاتها برهة في غمار التجربة الروحية "[1].

فنلاحظ هنا أن النفري استعان بالرموز الحسية (البحر، المركب، الألواح، الحيتان...)، ولربما مسوغ حسية هاته الرموز هو أنه كان مطالبا بالكتمان وعدم الإفصاح ,وهذا هو الشرط الأساس في الوقفة حيث يقول النفري:" وقال لي الوقفة علم ما هو الوقفة، والمعرفة علم ما هو المعرفة، وقتال لي يموت جسم الواقف ولا يموت قلبه، وقال لي دخل المدّعي كل شيء فخرج عنه بالدعوة وأخبر عنه بالدخول إلا الوقفة، فما دخلها ولا يدخلها ولا أخبر عنها ولا يخبر عنها"[2]. ومنه فإن ميثاق الكتمان حق واجب أثناء التجلي في الوقفة.

والدوافع التي أفضت إلى استعمال الرمز من طرف المتصوفة ,حية دائمة الحضور في أثارهم وقد تعددت وتنوعت، فمنهم من استخدمها مخافة الحكم والإدانة بالكفر والزندقة، وهناك من استخدمها بغية التستر على المكنونات الروحانية والأسرار العرفانية حتى لا يظفر بها أحد إلا من هم من أهلها.

[1]- شبكة الضياء للمؤتمرات والدراسات، مرجع سبق ذكره، Diae.net.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، ص12.

إلى أن فريقا من بعض هاته الآراء اختار دربا آخر حيث أجمع بعضهم على أن للرمز إرهاصات تأسيسية تعود للتراث الصوفي وهذا الأمر نجم عن الإكثار من استعمال الرمز فلا يخلو أثر شعري أو نثري من حضور للرمز.

لذلك توجه الصوفية أنفسهم على أنهم المؤسسون للمذهب الرمزي والواضعون للأسس الأولى لهذا الاتجاه.

فالمسالك الصعبة التي يخوض غمارها الصوفي في خضم تلك التجربة الروحية، تجعل البوح بها باستعمال اللغة قاصرة عن نقل أحوالهم لذا اتخذوا من الرمز وسيلة تعينهم على ذلك، هذا ما يجعل الأديب العادي يختلف عن الأديب الصوفي، كون الصوفي يلتحم مع العالم باحثا عن أي نقص يرتجي إكماله في حين أن الأديب العادي يقوم بالهدم لإعادة البناء من جديد، وفي خضم هذا التشاكل والتلاحم لم تجد اللغة العادية مكانا تتبوئه في نصوص الصوفية، وهذا ما يؤكده رأي النفري بقوله:" كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة" لكون ما تقابله ذات الصوفي تفوق ما تقابله ذات الكائن العادي في تجربته، حيث أن التجربة الصوفية هي" مجموعة من التجليات الوجدانية المؤيدة بأطوار روحانية يسلكها جملة من الشعراء الذين يجتازون مرحلة الزهد إلى مراحل تتدرج حتى تبلغ بهم مبلغ السالكين"[1].

يقول الدكتور عاطف جودت نصر حول صورة ركوب البحر عند المتصوفة ومتحيل إليه من دلالات رمزية "تئول هذه الأساليب كلها الى الرمز في طبيعته العرفانية، وفيه نتعرف على الخطر بوصفه علامة على كل حياة روحية تنشد التوتر الخصب والقلق المفضي إلى الطمأنينة الحقة"[2].

[1]- عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، دار الهدى، (د.ط)، (د.ت)، ص97.
[2] د.عاطف جودت نصر، مرجع سبق ذكره، ص460.

وينظر بعضهم إلى هذا الرمز من زاوية الإبداع فيقول: "ليس روح المبدع في الكون سوى سفينة في البحر، ووجود الروح هو وجده الخالص، وكل ما سواه غارق ...فالوقوف في بحر الحقيقة يفترض الانحلال فيه، والسلامة هي مجرد طوفان الجسد وأجزائه المتجزئة كما أن الغرق هو الانحلال في الكل، وهو إدراك يستلزم المغامرة والمخاطرة و التحدي ...فأي معنى للركوب بلا مخاطرة ؟ وإلا فركوب المبدع شبيه بسفر حقيبة من حقائب المسافرين لا قيمة لما فيها، لأن حقيقة الإبداع هي المخاطرة الدائمة، والقدرة على تصور النفس "الذات" منحلة في الكل الحي"[1].

نجده كذلك وظف رموز أخرى كثيرة منها رمز الإبرة و الخيط والشمس و النجوم، وكل رمز يحيل إلى شيء معين .

فيقول في موقف التيه: "وقل اقعد في ثقب الإبرة ولا تبرح وإذا دخل الخيط في الإبرة فلا تمسكه، وإذا دخل الخيط في الإبرة فلا تمسكه، وإذا خرج فلا تمده ..."[2].

والخيط هنا رمز للمعرفة والإبرة رمز للعلم، وثقب الإبرة لمجرى المعرفة من العلم وبين الخيط والإبرة ارتباط شبيه بارتباط العلم والمعرفة[3].

فالبعض من الرموز والإشارات، التي وظف فيها المحسوسات للدلالة على المعاني الصوفية العميقة التي أراد أن يصورها نذكر منها قوله: "...وقال لي كلك خلق فماذا تروم فرأيت السد قد أحاط بي ورأيته في السد يضحك وقال هذا منزل أهلي ولا اضحك إلا فيه"[4].

---

[1] هيثم الجنابي، حكمة الروح الصوفي، دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2001م، ص 338.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف التيه، ص 75.
[3]- ينظر، عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص 363.
[4]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الاختيار، ص 82.

فالمراد بالضحك هو "الرضى والإقبال فمعنى لا اضحك إلا فيه أي لا أرضى عن السالك إلا به"[1].

فالنفري يعتبر من احد متصوفة عصره الذين غلبت عليهم الرمزية في التعبير عن أحوالهم الوجدانية لهذا نجد في نصوصه الكثير من الغموض والاستغلاق، فلكل حرف من حروفه مغزى يوحي إليه ولكل عبارة استخدمها إشارة لا يدرك مراميها إلا أصحاب الذوق العرفاني

المبحث الثالث: الجمع بين المتناقضات

الواقف على النتاج الأدبي الصادر عن الذات الصوفية يدرك عمق النظرة التي تتسم بها هاته الأخيرة في رؤيتها المتعلقة بالدين، فهي تفوق الابتعاد عن النواهي والتزام بالأوامر فقط، بل تتجاوزها لتصبح رغبة ملحة في التقرب من الله والانتقال من كشوف الظاهر إلى مخافي الباطن وما ينال ذلك بسهولة، وإنما يكون بعد معاناة ومكابدات كلها تضرع ومناجاة هذا الأمر الذي أسهم في تشكيل خطاب يتسم بأشواط قرائية متعددة، تظهر للقارئ بعد التمعن الحاد والتتبع الفطن للخطاب الصوفي.

وهذا ما ترمي إليه التجربة الصوفية "ذاهبة إلى القول أن هذه الحقيقة الشرعية ظاهرة لا تمثل الحقيقة كلها- فهناك ما لم يقله الشرع، وهو الغيب المجهول، أو ما تسميه بالباطن الخفي، وهذا العالم الباطن لا يتم الوصول إليه بالوسائل التي نعرف بها الظاهر، سواء تمثلت في الشريعة أو العقل، وإنما يتم الوصول إليه بوسائل أخرى: القلب، الحدس، الإشراق الرؤيا...ومن هنا ارتبطت معرفة الحقيقة في التجربة الصوفية بالذات العارفة، في تجربتها الخاصة، خارج العقل و النقل، وبما أن لكل ذات تجربتها

[1]- ينظر، عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص 320.

المغايرة، فإن الحقيقة تتجلى لكل ذات، بشكل مغاير، لكن هذا التغاير ليس تناقضا، وإنما هو على العكس، تكامل– أو هو في الأصح، تعدّد ضمن الوحدة– وحدة الحقيقة"[1].

المطلب الأول: جدلية الظاهر والباطن

من خلال ما سلف ذكره فإن الدارس للخطاب الصوفي يدرك جيدا بأنّ الخلوة الصوفية تقوم على الاتصال العمودي مع الحق (الله) من جهة، والاتصال الأفقي مع الخلق (المخلوقات) من جهة أخرى، مع العلم أن الصوفي لا يرى العالم باعتباره مدركا خارجيا، بل يراه مدركا داخليا يجب الإيغال فيه، هذه هي الوجهة التي أفضت إلى تشكيل نسق خارجي وهو ما يدرك بالعقل (الظاهر)، ونسق داخلي وهو ما يستعمل القلب كأداة لإدراكه (الباطن) وهناك دونا شاسع بين المعرفة العقلية والمعرفة القلبية فالأولى تؤدي إلى إلمام الجزئي لشيء أما الثانية فهي إدراك الكلي لشيء، وهذا هو ما يقابلنا عند التجوال في مواقف ومخاطبات النفري، فلا معنى لاستخدام المنطق عند قراءة نصوص هذا المبدع الذي أتاح للعقل بأن يكسب لفعل القراءة أفاقا تأويلية أوسع لكون اللغة قاصرة عن استيعاب المعنى المراد الذي يبتغي الإنسان العادي التعبير عنه أحيانا، فكيف بها أن تعبر عن ما يختلج ذات الصوفي في خضم، وقفته مع الحق وفي هذا يقول النفري: " وقال لي لا تسمع في من الحرف، ولا تأخذ خبري عن الحرف وقال لي: الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عني؟ وقال لي: أنا جاعل الحرف والمخبر عنه وقال لي: أنا المخبر عني لمن أشاء أن أخبره"[2].

فالمعرفة الصوفية لا يدركها القاصي والداني وإنما هي توهب من لدن العزيز الحكيم لمن يراه أهلا لها، والكتابة النفرية هنا تتسم برؤية باطنية معمقة،" حيث أن النفري

[1]- أدونيس، الصوفية السوريالية، مرجع سبق ذكره، ص 188.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف مالا ينقال، ص60.

يعطي للدّين بعدا ذاتيا، وهو في ذلك يؤسس نظرة معرفية أخرى تغاير النظرة الدينية التقليدية وهو، في فهمه النص القرآني، بطريقته التأويلية، يحدث انقلابا في النظرة إليه، إنه في الحالتين ينقلنا من الظاهر إلى الباطن، ومن المعرفة العقلية إلى المعرفة الذوقية"[1].

كما أن النفري وافق الصوفية الذين سابقوه في نظرتهم بضرورة خلع النعلين ويقصد بذلك: نعلي الدنيا والآخرة كشرط أساس للتوصل إلى الحق وهو أمر أصر عليه النفري باعتبارها سنام الرؤيا[2].

فيقول:" يا عبد من لم يرني في الدنيا لا يراني في الآخرة "[3].

فالرؤية في الدنيا هي شرط الرؤية في الآخرة، ليذكر بعدها: يا عبد رؤية الدنيا توطئة لرؤية الآخرة "[4].

وهذا القول جاء مفصلا لما سبقه حيث: "التوطئة كما نعلم هي التمهيد والتهيئة للتحقيق، والأصل في فهم أقواله هذه هو فهم منطق التوحيدية الظاهر والباطن وهما المعبر عنهما بالدنيا والآخرة، وكأنه بذلك يقصد إلى التعمق والغوص المستفيض من الواضح الجلي إلى المستتر الخفي.

ومن هنا تشكلت جدلية الظاهر والباطن وفق الرؤيا الصوفية، فهاته الأخيرة تجاوزت ظاهر سطحي للنصوص، وهنا كمن التشابك نتيجة "خلل للفهم الواقع بين النص الصوفي والمتلقي، قد أدخله في مساحة، خلق أزمة في التواصل أقصته من الثقافة

[1]- أدونيس، الشعرية العربية، مرجع سبق ذكره، ص65.
[2]- ينظر، سلمان بشير، مرجع سبق ذكره، ص11.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، المخاطبة14، ص164.
[4]- المصدر السابق، المخاطبة14، ص164.

الرسمية"[1]، وهذا إجحاف في حقه أدي إلى إهمال العديد من النصوص الثمينة التي يجب نفض الغبار عليها وإدخالها مضمار الدراسة والتمحيص.

فالمعرفة الصوفية تجربة صوفية توغل في عوالم مجهولة وأبعاد لا متناهية، لذلك لا يصلح الإبحار فيه بأدوات المنطق والعقل، "فهي أقرب إلى حالات الإحساس منها إلى الحالات الفكرية، فإنها تبدو لمجربيها حالات معرفة فإنها حالات إدراك لأعماق الحق"[2].

فالرؤية الصوفية تسير وفق نظام مغاير، فإذا كان الظاهر سهل المنال فإنه لا يمثل إلا الجزء اليسير فقط، ويتفق في إدراكه عامة الناس، أما الباطن فهو المحجوب والمستور، يتطلب إدراكه جهدا و مشقة ولا ينكشف إلا لثلة خاصة من الناس "فالصوفي يكشف من الأسرار وهو على ما هو عليه من غيبة عن نفسه وتعطيل لحسه مالا يستطاع أن يدرك أو يكتشف بعقله أو حواسه وهو في حالة العادية، فهي إذن حالة روحية تتجسد في عالم المخيلة من حيث مفارقتها للفكر"[3].

وفي هذا يلتقي الأديب الصوفي مع الأديب العادي ويتفقان من حيث إلغاء المنطق، واستعمال القلب قبل العقل.

كما أن المتلقي هو ثالثة الأثافي حيث أن "معنى النص لا يتشكل بذاته أبدا، فلا بد من عمل القارئ لإنتاج المعنى فالنصوص الأدبية تحتوي دائما على فراغات لا يملئوها إلا

[1]- نصيرة صوالح، إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي-المواقف للأمير عبد القادر- نموذجا، رسالة الماجستير، جامعة تلمسان، 2005، ص5.
[2]- علي زيعور، العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، دار الطليعة، 1979م، ص92.
[3]- المرجع السابق، ص108.

المتلقي وفق ثقافة عصره مما يعني أن النص قابل للتجدد والتأويل بشكل دائم ومستمر"[1].

هذا ما يكسب النص الصوفي الاستمرارية والانفلات من قيود الزمن وأفاعيله، فذلك المعنى الخفي المستتر الذي كثيرا ما يقابلنا في السواد الأعظم من الآثار الصوفية عامة وعند النفري خاصة يمكن تشبيه بالجدار الجليدي الضخم، والظاهر منه ما هو إلا النزر اليسير فقط، أما ما خفي منه فإنه أكثر بكثير من ذلك، لذلك فإن كل قراءة للنص الصوفي هي نظرة حديثة وميلاد جديد "الكتابة هنا هزة كيانية، أو زلزال في اللاّمرئي يزلزل بدوره المرئي، إنها كتابة بالأعصاب، والإرتعاشات، والتوترات- الجسمية والروحية، كتابة بالشهيق والزفير، كتابة انبهار، كتابة يأس على حدود الأمل، وأمل على حدود اليأس، كتابة تدخل في الكلمات نفسها أعصابا،...، وفي هذا يمثل جانب من جوانب الكتابة الصوفية اللاّمعيارية، أي خروجها من الخضوع إلى معيارية محددة. فهي كتابة تجعل المعايير نفسها في حركة دائمة من التغير، أعني في حركة دائمة من الابتداء، كمثل الكتابة فسها. المعيار نفسه هو هنا، كمثل الكتابة، ليس ثباتا ، بل تحوّل"[2]. فالكتابة هي إلغاء لكل تأويل مسبق وميلاد لقراءة جديدة في غمار الوجود لكون التجربة الصوفية تسلط الضوء على العلاقة الرابطة بين الفكر الاجتماعي والسلطة الدينية هذا الأمر الذي نتج عنه عدم ثبات الكتابة الصوفية ووقوفها على نموذج واحد.

المطلب الثاني:ثنائية السلب والإيجاب:

[1]- رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة نقلا عن ميلود عزوز، المصطلح الصوفي بين الدلالة المعجمية والدلالة العرفانية، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة تيارت،2008، ص66.
[2]- أدونيس، الصوفية والسوريالية، مرجع سبق ذكره، ص59.

غالبا ما تكون العقبة التي قاصر الصوفي هي قصور اللغة وضيقها وهذا راجع لكونه كثيرا ما (يتأرجح) الصوفي بين البوح والستر لوقوعه بين قطبين متناقضين: الرؤيا/العبارة بين ما ينقال بطبيعته من حيث كونه قابلا للقول، وبين مالا ينقال، على القول: "فتكون بنيته الداخلية غير قابلة أن تتجسد في القول، فتكون بذلك ممتنعا، أي لامتناعه في ذاته، ولهذا فالصوفي إنما يغامر حيث يكشف مالا ينقال بما ينقال أي محاولة ترجمة الرؤيا باللغة"[1].

ومن الملاحظ عن النفري، أنه يستعمل في سياق نصوصه الصوفية الأضداد بكثرة وسنورد عرضا لبعض هذه الثنائيات الضدية :

ـــالبعد والقرب:

حيث يقول النفري بهذا الصدد: "أوقفني في القرب وقال لي ما مني شيء أبعد من شيء ولا من شيء أقرب من شيء إلا على حكم إثباتي له في القرب والبعد"[2].

وفي هذا حكم على القرب والبعد لا يكون إلا بتحقيق من الحق فهو المتحكم في نسبية هذين النقيضين حيث يقول: "وقال لي أنا أقرب إلى اللسان من نطقه إذا نطق"[3] وهذا ما يذكرنا بقوله عز وجل: "وقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد"[4]، فالقرب هنا لا يقصد به تلك المسافة الفاصلة بين الحضور والغياب وإنما المقصود منها العلم و القدرة

[1]ـ د.أحمد بوزيان، بلاغة الصمت في الخطاب الصوفي، قراءة في مذاق البدايات، جامعة عبد الرحمان بن خلدون تيارت، الجزائر، العدد18، مجلة الأثر، جوان2013، ص87.
[2]ـ النفري، مصدر سبق ذكره، موقف القرب، ص2.
[3]ـ المصدر السابق، موقف القرب، ص3.
[4]ـ سورة ق- الآية16.

حيث يقول القرطبي في التفسير: "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد هو حبل الواقف وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال وهذا تمثيل للقرب، أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه وليس على وجه قرب المسافة، وقيل أي وتحن أملك به من حبل الوريد الذي هو من نفسه لأنه عرق يخالط القلب، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب وهذا القرب قرب العلم والقدرة،... ولا يحجب علم الله شيء"[1].

هذا ما أخص به النفري حديثه عن القرب أما حديثه عن البعد فيقول: "تصفني ولا تدركني بصفتي ذلك هو البعد، تسمع خطابي لك من قلبك وهو مني ذلك هو البعد"[2]. فالوصف اقتصار على الحواس والظاهر الواضح، أما الإدراك أعمق وأوسع وأكثر إحاطة واستخداما للحواس والبصيرة فمتى كان الاقتصار على ما توفر المعطيات الحسية كان هذا وصفا، أما الاستعمال القلبي المصحوب بالبصيرة كان هذا إدراكا، وهنا يمكننا القول بأن الوصف دون الإدراك هو بعد وغياب عن الحق في ذاته.

ـــالحجاب والكشف :مثل قوله في موقف استوى الكشف والحجاب: "...وقال لي غذار رأيتني استوى الكشف والحجاب..."[3].

وفي موقف حجاب الرؤية يقول: "...من عرف الحجاب اشرف على الكشف..."[4].

[1]- أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمديم لما تضمنه من السنة وآي القرآن، تحقيق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي،ط1، جزء 19، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 1427هـ/2006م، ص435.

[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، ص3.

[3] المصدر السابق، موقف استوى الكشف، ص57.

[4] المصدر السابق، موقف حجاب الرؤية، ص55.

ــ الرؤيا والغيبة :جعل النفري في مواقفه الصوفية مصطلح الرؤيا الذي مثل مذهبه وفلسفته الصوفية، ومن المقامات التي أبدعها من ذكر للأضداد بطريقة فنية جذابة حيث انه افرد الغيبة مقابل الغيبة في عدة مواضع نذكر بعضها:

قوله في موقف ادعني ولا تسألني: "...وقال لي ليس من أهل الغيبة من لم يكن من أهل الرؤيا..."[1].

ويقول في المخاطبة 30:"...يا عبد ذكر الحق لا في رؤية ولا في غيبة أن ذكرتني في الغيبة فمن أجلك، وان ذكرتني في الرؤية احتجبت بذكرك..."[2].

وقوله في موقف واحل المنطقة: "...وقال لي إذا رأيتني فلا تسألني في الرؤيا ولا في الغيبة لان كان سألتني في الرؤيا أخذتها إلها من دوني وإن سألتني في الغيبة كنت كمن لا يعرفني..."[3].

وقوله في موقف حجاب الرؤية حيث يقول: "العلم وما فيه في الغيبة لا في الرؤيا..."[4].

ــ العلم والجهل: جعل للعلم ضدا وهو الجهل ونجد هذين الضدين في الكثير من الأماكن في مؤلف النفري، منها موقف أنت منتهى عزائي حيث يقول: "أوقفني وقال لي العلم على من رآني اضر من الجهل..."[5].

وفي المخاطبات نجد المخاطبة رقم 34 حيث يقول فيها: "...يا عبد صاحب الرؤية لا في العلم فأحاسبه ولا في الجهل فأجانبه"[1].

[1] المصدر السابق، موقف ادعني ولا تسألني، ص73.
[2] المصدر السابق، المخاطبة 30، ص185.
[3] المصدر السابق، موقف احل المنطقة، ص44.
[4] المصدر السابق، موقف حجاب الرؤيا، ص54.
[5] المصدر السابق، موقف أنت منتهى عزائي، ص47.

ويذكر في موقف حجاب الرؤيا: "أوقفني وقال لي الجهل حجاب الرؤيا والعلم حجاب الرؤيا، أنا الظاهر لا حجاب وأما الباطن لا كشوف...الجهل حد في العلم وللعلم حدود بين كل حدين جهل"[2].

من خلال ما سبق فقد حاولنا أن نذكر بعضا من الأضداد التي قمنا برصدها في خطاب النفري، ورأينا انه أبدع فيها وهذا راجع لكونه يعتبر من المتصوفة الذين استخدموا لغة التضاد أو المثنويات، وقد قال يوسف سامي اليوسف "بأن أكثر الصفات حضورا في نصوص النفري كلها تتلخص، في أن تلك النصوص كثيرا ما تعنى بجدل الأضداد أو المثنويات المتقابلة والمتنافية، الأمر الأكيد فيه أن التضاد لا يقع بفعل الصدفة، في خطاب النفري، وإنما يكون نتاجا لوعي وتصميم مسبقين...هذا الخطاب ينبجس من بؤرة مركزية واحدة وهي ذلك التضاد القائم إلى الأبد بين اللغة والمادة...أو بين ما يتجسد ومالا يتجسد"[3].

[1] المصدر السابق، المخاطبة 34، ص189.
[2] المصدر السابق، موقف حجاب الرؤيا، ص53-54.
[3] ينظر، :يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، دراسة في فكر وتصوف محمد عبد الجبار النفري، مؤسسة علاء الدين للطباعة والنشر، (ب ط)، 2004م، ص 27-28.

الفصل الثالث

الملامح التجديدية للنفري .

المبحث الأول: الرؤيا الفلسفية

المطلب الأول: المقامات التي أبدع فيها النفري

يعدّ الشيخ النفري من المتصوفة الذين أبدعوا وتميزوا بنصوصهم النثرية والشعرية حيث أن هذا ظاهر وبارز في كتابه "المواقف" و"المخاطبات" لأنه لا يقلد غيره بل يأتي بملامح جديدة اوضح بصمته وعمله الفريد ومن المقامات التي نجد أن النفري تفرد بها عن غيره وأبدع فيها هما مقامين اثنين من مقامات السلوك في التصوف الإسلامي واعتنى بهما اعتناءا عميقا ودقيقا إذ جعلهما جل حديثه في تراثه الصوفي وهما مقام الوقفة ومقام الرؤيا.

1/ مقام الوقفة :

وهو أول مقام أبدعه النفري وأضافه إلى تراث أهل الذوق والعرفان، فالوقفة مذهب النفري وجوهر فلسفته الصوفية وهي أهم مقولة في مقام النفري كله إذ خصص لها موقفا بكامله وهو الوقف الثامن الذي عنوانه "موقف الوقفة" ويرى جمال المرزوقي أن النفري "أظهر في مصنفاته على مذهب صوفي جديد إلى حد كبير، وهو مذهب يقوم على ما يسمى بالوقفة"[1]. فجاءت الوقفة عنده في كتابه الأول "المواقف" حيث يبدأ كل موقف من مواقفه بـــ (أوقفني) ويردفها بقوله (قال لي) وكأنه يتلقى الخطاب الإلهي بعد أن يتم حال الوقف ويتهيأ للإنصات، وأنّ دلالة مقام الوقفة تشير إلى أنّ المعنى يصيح ملكا لله وحده لا غيره، ظاهريا وباطنا.

للوقفة معاني ومفاهيم عدة يجب التطرق إليها وهي حسب ما جاء في نصوص النفري أن هي: الانفصال التام عن كل ما سوى الله، والاتصال بالحق تعالى، وحول هذا يقول جمال المرزوقي:" الوقفة وتعني عند النفري، أن ينفصل الصوفي تماما عن السوى

[1]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص21.

ويفنى عن الكونية وذلك لغلبة الحقبة عليه وبالتالي لا يشهد وجودا غير الله عز وجل وعلا ففي هذا الفناء تزول الرسوم بالكلية عن عين الذات الأحدية، وترتفع الأثنينية التي بين الله والعالم، فلا يشهد الصوفي إلاّ الأحدية لأنه فنا عن نفسه، وعن كل شيء في الوجود لكونه مستغرقا في الوحيد"[1].

وأبرز ما جاء في الموقف الذي خصصه النفري لهذا المقام والذي بيّن فيه بعض معاني الوقفة، حيث قال: أن "الوقفة نار تحرق السوى، فإن أحرقته وإلاّ أحرقه الله تعالى بالسوى"[2]. فهي نار من شأنها أن تحرق السوى، ولكنها إن لم تحرقه، فإنّ الله سوف يحرق كل من عجز عن إنجاز الوقفة[3]. فيختار السالك بين الله تعالى والعالم، فمن "... لم يقف بي أوقفه كل شيء دوني"[4]. ويتضمن مثل هذا القول أن الوقفة هي وحدها درب الحرية والإنعتاق من هيمنة المادة وسطوتها الخانقة[5].

فيقول شارح المواقف معلقا على هذا القول: "أن معناه من لم يشهد أحدية الجمع، وهو ما به يتحد كان عرضة لما به يفترق، وجانب الحق تعالى هو القيومية الوحدانية وهي واحدة للجميع، فإذا لم يلحظها في العلوم شواغل، وكونها شواغل هو المقصود بقوله "أوقفني كل شيء دوني" والحق أنه ليس كونها شواغل فحسب هو الذي يوقفه بل وزيادة أنها هي السوى المشار إليه أنه حجاب، وذلك أنّ الموجودات بأسرها وحدانيتها للحق تعالى وجانب كثرتها وهو ما به يتمايز هو للسوى، والذي به يتمايز هي أعراض إذا حققت وجدت عدمية، قال الغزالي رضي الله عنه (رحمة الله عليه) في كتاب "مشكاة الأنوار" ما معناه أنّ قوله تعالى "كل شيء هالك إلاّ وجهه" معناه أنّ ذلك دائم وأنّ

[1]- جمال أحمد سعيد المرزوقي، فلسفة التصوف (محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري)،دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ـبيروت ـ مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والنشر، 2009م، ص45.
[2]- المصدر السابق، "موقف الوقفة"، ص10.
[3]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص38.
[4]- النفري، مصدر سبق ذكره ،ص10.
[5]- يوسف سامي اليوسف،مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص38.

الهلاك المشار إليه هو العدم ولوح تلويحا يفهم أنّ الهالك المعدوم، دائما هو ما تتمايز به الأشياء، وأنها بنسب عدمية، وهذه المسئلة من عرفها قطع مراتب الخلق واتصل بالخلائق الحق، ولسنا نجد شيئا تشترك فيه الموجودات إلاّ الوجود والوجود جوهر واحد في الخارج[1].

فالذي يصل إلا مقام الوقفة فتمحو عنه الرسوم ويزول السوى أثر الغيرة وهذا ما ذهب إليه النفري في عدة أقوال منها قوله: "... الوقفة تعتق من رق الدنيا والآخرة / والواقفة من الصمدية لا تتعلق بسبب ولا يتعلق بها سبب / الوقفة نورية تعرف القيم وتطمس الخواطر/ الوقفة تنفي ما سواها كما ينفى العلم بالجهل / الوقفة نار الكون".[2]

وقد نعت الوقفة بأنها باب رؤية الله تعالى، حيث قال: "... الوقفة باب الرؤية، فمن كان بها رآني ومن رآني وقف، ومن لم يرني لم يقف"[3].

فصاحب الوقفة هو الذي يستطيع الوصول إلى رؤية الله تعالى، فشرط الرؤية هو الوقفة، وزاد النفري في توضيح معنى وماهية الوقفة، حيث جعلها نوره تعالى وميثاقه وعلمه وهذا في قوله: " وقال لي الوقفة نوري الذي لا يحاوره الظلم...الوقفة ميثاقي على كل عارف عرفه أو جهله، فإن عرفه خرج من المعرفة إلى الوقفة، وإن لم يعرفه امتزجت معرفته بحده...الوقفة علمي الذي يجير ولا يجار عليه"[4]. وأنّها "...صمود والصمود ديمومة والديمومة لا يقوم لها حدثان"[5]، وأنها يده الطامسة في قوله: "وقال لي لي الوقفة يدي الطامسة ما أنت على شيء إلا طمسته، ولا أرادها بشيء إلا أحرقته"[6]، وأنها جواره وحضرته إذ قال: "... الوقفة جواري، وأنا غير الجوار/ والوقفة

[1]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص120.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، "موقف الوقفة"، ص10 و11-12 و ص13 و16.
[3]- المصدر السابق، ص11.
[4]- المصدر السابق ، ص14.
[5]- المصدر السابق، ص15.
[6]- المصدر السابق، ص13.

حضرتي..."[1]، وجعلها وصف من"... أوصاف الوقار... وخروج الهم عن الحرف وعمّا ائتلف منه والفرق"[2].

فالوقفة حسب الأقوال السابقة الذكر، وكما يراها النفري، هي مقام العبد بين يدي ربه عز وجل، وللوصول إلى هذا المقام على الواقف ترك كل شيء سوى الله تعالى، فهي مبلغ وغاية الواقف عن ربه عز وجل.

فقد اعتبر نيكلسون الوقفة "أعلى درجات الفناء، وهي الفناء في الذات الإلهية، ووصفها أدق وصف النفري، الذي استبدل "الفناء" و "الفاني" بـــ "الوقفة" و"الواقف"، فالوقفة عنده الانقطاع عن الطلب والوقف المنقطع عن فنائه في المطلوب"[3]. فالمعنى أنّ الوقفة عند الشيخ النفري تعني فناء ذات الطالب في ذات المطلوب وسميت وقفة للوقوف فيها عن الطلب.

فصاحب مقام الوقفة هو الواقف الذي "... دخل الواقف كل بيت فما وسعه وشرب من كل مشرب فما روى، فأقضى إليه وأنا قراره وعندي موقفه...و... يرى الأواخر فلا تحكم عليه الأوائل/ ولا يقبله الأغيار ولا تزحزحه المآرب / ولا يروقه الحسن، ولا يروعه الروع، أنا حسبه والوقفة حدّه"[4].

فالواقف يرى الواحد الحق تعالى فلا تحكمه الموجودات أو لا تحكمه الكثرة، ومن وصل إلى هذا المقام فهو من أهله الواقفون والذي وصفهم بالأمراء في قوله: "... الواقفون أهلي ... أهلي الأمراء"[5].

---

[1]- المصدر السابق، ص13،15.
[2]- المصدر السابق، الموقف18، ص37.
[3]- نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة وتعليق نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، مصر1371هـ/1951م، ص146.
[4]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الوقفة، ص10-12-15.
[5]- المصدر السابق، موقف الوقفة، ص12.

وذهب النفري إلى أن الواقف يفني نفسه بمفارقته حكم البشرية[1]. وعلى الواقف الاستعانة بالدعاء في الوقوف بين يدي ربه عز وجل فيقول: "وقال لي استعن بالدعاء اليّ على الوقوف في مقامك بين يدي"[2]. والواقف به تعالى يعطيه الله عز وجل العلم فيصبح أعلم العالمين ويعطيه المعرفة فيصبح أعرف العارفين ويعطيه الحكم فيصبح أقوم من الحاكمين[3].

فأصحاب مقام الوقفة عند النفري يطلعهم الله تعالى على مراده، فهم أولياء الله، وقد جعلهم ثلاث طوائف في قوله: "... أوليائي الواقفون بين يدي ثلاثة فواقف بعبادة، أتعرف عليه بكرم، وواقف بعلم أتعرف إليه بالعزة، وواقف بمعرفة أتعرف إليه بالغلبة"[4].

فحسب شرح عفيف الدين التلمساني هذه الطوائف الثلاث هي[5]:

1. أهل التقليد العابدون خوفا من العقاب، وطلبا لثوابه، وما اعده لأمثاله من مآبه فيتعرف الى قلوبهم بالكرم.
2. الفلاسفة والمتكلمون الواقفون بالفكر، الذين يتعرف إليهم بالعزة من قولهم عز وجود الشيء إذا تعذر.
3. أهل الأذواق من الصوفية يغلبهم الحق تعالى على وجودهم بمحوهم فيكونون من أمره والله غالب على أمره، وهؤلاء سالكون بالله لا بأنفسهم.

إذن الوقفة هي مقام من مقامات التصوف الإسلامي، أبدعه النفري في تراثه الصوفي، فالنفري تميّز عن كل من سبقه في التشريع لهذا المقام في سلم مقامات السلوك، والذي

[1]- المصدر السابق، ص11.
[2]- المصدر السابق، الموقف 35، ص61.
[3]- المصدر السابق، الموقف 51، ص84.
[4]- المصدر السابق، موقف الكبرياء، ص04.
[5]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص84-85.

يعتبر عنده أهم مقام للوصول إلى الله عز وجل وعلا أو الوقوف بين يديه تعالى، وترك كل ما سوى الله تعالى، فقد مثلث مبدأه وجوهر فلسفته الصوفية.

2/ مقام الرؤيا:

فغاية الوقفة الاستعانة بالله، مصدر الوجود الحقيقي لكل الأشياء لتحصيل المعرفة عنه وعن كل الموجودات، ولن يتحقق ذلك إلاّ بالرؤية المقولة الثانية الأساسية في منهج الوقفة، وتنبجس بعد تحقيق الوقفة، وتعتبر أرقى أبواب الاتصال بالحقيقة الإلهية وفي هذا يقول النفري: "وقال لي الوقفة باب الرؤيا فمن كان بها رآني ومن رآني وقف، ومن لم يرني لم يقف"[1].

فالرؤية هي المقام الثاني من مقامات السلوك عند النفري والتي تميّز بها عن سابقيه من المتصوفة أهل الذوق والعرفان، ويرى يوسف سامي اليوسف "أن النفري يعتقد ثلاث مستويات للاتصال بالحقيقة، وهي العلم والمعرفة و الرؤيا، ولعلّ مقولة الرؤيا للنفري أن تضارع مقولة المعرفة الكاملة الشاملة، والتي هي أعلى مستويات الاتصال بالحقيقة"[2].

وعند قراءة نصوص النفري قراءة دقيقة يتبيّن لنا أنّ الشيخ النفري يكافح من أجل إحراز الرؤيا، التي هي غاية الروح، وهذا يظهر في قوله: " يا عبد الرؤيا علم الإدامة فأتبعه تغلب على الضدية"[3]. ويشبهه هذا القول الذي جاء في المخاطبة رقم 34: "يا عبد إنما تختلف في الضد وما في رؤيتي ضد"[4]. فالرؤيا عنده هي التعرف على

[1]- بن عكنون سامية، الاشتغال الأنطوبلاغي في كتاب المواقف لعبد الجبار النفري، مذكرة لنيل أطروحة الدكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بدون سنة نشر، ص20.
[2]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص33.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، ص186.
[4]- المصدر السابق، ص 190.

الديمومة فقد تغلب على التضاد، لأن التضاد لا يدوم، وهي الغاية للصوفية عامة وللنفري خاصة.

نجد أن النفري أوصى على المحافظة على مقام الرؤيا وهذا يتجلى في موقف عهده حيث قال: "...احفظ عليك مقامك وإلا ماد بك كل شيء... مقامك هو الرؤيا، وهو ما رأيت ورود الليل والنهار وما رأيت من كيف الليل و النهار..."[1].

ويرى أن الحرية هي ماهية الرؤيا لأن الرؤيا هي الغنى الذي لا يشبهه غنى آخر، وبها يتحرك الإنسان من كل عبودية[2].

فالملاحظ أنّه توجد علاقة بين الوقفة والرؤيا في نصوص النفري الصوفي فنجده ذكر الرؤيا مقرونة بالوقفة ويظهر هذا من خلال قوله: "... الوقفة باب الرؤية، فمن كان بها رآني ومن رآني وقف، ومن لم يرني لم يقف...والواقف يراني ولا يرى سواي..."[3].

إن الوقفة باب الرؤية التامة، فمن كان بها حصلت له تمام الرؤيا، ومن رآه في مبادئ الرؤية غير التامة وقف، فالرؤيا الجزئية باب الوقفة، والوقفة التامة باب كمال الرؤية، فليس بينهما تناقض[4].

إذن إن الارتباط وارد بين الوقفة والرؤيا إذ أن الثانية علة الأولى ومعلولها، كما أنها تبدو قدرة ذاتية وكمالية لرؤية الحقيقة الإلهية من وراء كل شيء، مثلما يؤكد قوله :" إذا كان إلي المنتهى سقط المعترض/ لا يكون إلي المنتهى حتى تراني من وراء كل شيء"[5].

---

[1]- المصدر السابق، الموقف 60، ص103.
[2]- المصدر السابق، الموقف 44، ص 23.
[3]- المصدر السابق، الموقف 8، ص14.
[4]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق رذكره، ص122.
[5]- بن عكنون سامية، مرجع سبق ذكره، ص21.

فالرؤية فوق الأمر والنهي، أي فوق التكاليف، والأمر والنهي في العلم، أمّا الوقفة فتتجاوز العلم والمعرفة وفيها تكون الرؤية[1].

ويقول أيضا في المخاطبة 01: "يا عبد أنا أولى بك من علمك، وأنا أولى بك من عملك، وأنا أولى بك من رؤيتك، فإذا علمت فصر وما علمت إليّ فاستمع مني فيه واحمل إليّ رؤيتك ووقفتك وقف بين يديّ وحدك لا بعلم فإنّ العلم لا يواريك عنيّ ولا بعمل فإنّ العمل لا يعصمك مني ولا برؤية فإنّ الرؤية لا تغني مني ولا بوقفة فإنّ الوقفة لا تملك بها مني"[2].

ومن شروط النفري للوصول إلى مقام الرؤيا الخروج عن كل ما من سلالة السوى وجنسه كاللغة والحرف وهذا يتجلى في أروع وأجمل وأدق عبارة له وهي قوله في الموقف 28: "كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة... العبارة ستر فكيف ما نديت إليه".[3].

يعلّق يوسف سامي اليوسف في كتابه على هذا القول فيقول أنّها كلّما ازدادت الرؤيا سعة ازدادت اللغة ضيقا بالفعل، لأنّها أعجز من أن تحمل ثقل المعاني القادمة من وراء الغيب، واللغة حجاب يحجب الحقيقة، فلا يسعك استيعابه، فالرؤيا لا تحتاج إلى لغة قط...فاللغة في منظور النفري من فصيلة السوى"[4]. وهذا ما أكّده في عدة مواقف منها ما جاء في الموقف33 : "... لا تقف في رؤيتي حتى تخرج من الحرف و المحروف"[5]. إذاً فشرط الرؤيا هو التخلص من الأقوال والأشياء والمادة في آن واحد

[1]- جمالأحمد سعيد المرزوقي، فلسفة التصوف، مرجع سبق ذكره، ص33.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، المخاطبة01، ص146.
[3]- المصدر السابق، الموقف 28، ص51.
[4]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص57-58.
[5]- المصدر السابق، موقف الصفح الجميل، ص 58.

والخروج من اللغة بغية الوصول إلى هذا المقام ومثال ذلك ما جاء في قوله: "أصحاب الحروف محجوبون عن الكشوف"[1].

وله حديث طويل فيما يخص الرؤيا التي تمحو المادة ونجد هذا في المخاطبة 11حيث قال: "يا عبد إذا بدت الرؤية تبقى فتدر فما رأيتني إذا بدت لا تبقي ولا تذر فقد رأيتني وأنا نصوح ما لملك خلقتك ولا لنبي صنعتك ولا على مدرجة وقفتك ولا لملك وملكوت بنيتك ولا لعلم صنعتك ولا للحكمة أظهرتك ولا لغيري أردتك، أظهرتك لي وحدي فجريت بإذني وقلبتك فانقلبت على الثبت الذي شئته والثبت سترك الأصلي وتحته تثبت الفروع كلها، وبدأت فأحرقت الستر وما تحته ونصبت الإحراق سترا بيني وبينك، وإنّما قلت لك أبدو لأعرفك إنّما يبدو من يغيب ويغيب من يبدو وأنا الدائم صفته المنزه عن بدو غيبه، وإنّما أبديك وأخفيك و أفرشك وأطويك ... فقف لي أنت جسري ومدرجة ذكرى عليك أعبر إلى أصحابي"[2].

ما خلق الواقع وما صنع إلا لغاية واحدة في رأي شيخنا النفري وهي الوصول إلى الواحد الأحد ورأيته يترك كل ما سواه فتوجد بين السوى والله عز وجل وعلا علاقة عكسية، إذا رأيت المادة أو كل فصيلة من السوى فلا تستطيع الوصول إلى رؤية الله تعالى، وأمّا إذا رأيت الله تعالى رؤية كاملة كما يراها النفري فإنك تفنى عن السوى فلا ترى وجودا غير الله تعالى، فلهذا يرفض النفري رفضا تاما وكليا للمادة أو للسوى.

فالنفري مولع بالنقائض والمتضادات فلهذا نجده قد وضع للرؤيا نقيضا سماه بالغيبة، ولقد صرّح بهذا في عدة أقوال نذكر منها:

[1]- المصدر السابق، موقف المحضر والحرف، ص117.
[2]- المصدر السابق، المخاطبة 11، ص159.

قال: "... أيّهما تسألني الرؤية لا عن المسألة أم الغيبة على المسألة، الغيبة قاعدة ما بيني وبينك في إظهارك"[1].

ويرى أنه إذا بنيت الغيبة هدمت الرؤيا[2].وقوله: "... الغيبة وطن ذكر، الرؤية لا وطن ولا ذكر... الرؤية تشهد الرؤية فتغيب عمّا سواها... العلم وما فيه في الغيبة لا في الرؤية... إن اعتبرت الغيبة بعين الرؤية رأيت ائتلاف الداء والدواء فضاع حقي وخرجت عن عبوديتي... رؤيتي لا تأمر ولا تنهى، غيبتي تأمر وتنهى/... والدنيا سجن المؤمن الغيبة سجن المؤمن... الغيبة دنيا وآخرة والرؤية لا دنيا ولا آخرة... الرؤية خصوص الغيبة عموم، لا رؤية ولا غيبة حزب العدّو... ليس من أهل الغيبة من لم يكن من أهل الرؤية"[3].

وأن مقامه في الدنيا يكون في الرؤية، وفي الآخرة هي الكشف ووعيده في الدنيا يكون في الغيبة، وغيبته في الآخرة هي الغطاء، فالرؤية تضيء وتنير وتشرق كالنهار وغيبته تعالى ظلمة توحش وتجهل كالليل، فغيبته تعالى شريكة كل شيء أمّا رؤيته لا يبقى معها شيء[4].

إذن لا مبالغة في قول النفري هو الرائي الأول في الصوفية العربية برمتها، وما ذلك إلّا أنّه الأكثر إصرارا على احتراق كثافة المادة وثقلها، ابتغاء الوصول إلى اللطف القصي[5]. فالرؤية الحقة في رأيه كما تقدم في إلغاء آنية الرائي تماما، وحيث الإنسان لا

[1]- المصدر السابق، الموقف 22، ص114.
[2]- المصدر السابق، المخاطبة 37، ص193.
[3]- المصدر السابق، الموقف 29-30، ص54-55.
[4]- المصدر السابق، المخاطبة 27، ص183.
[5]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص415.

تفنى عنه بشريته تماما في الرؤية، أي رؤية العبد لربه تعالى غير ممكنة في تصوف النفري[1]. وصرّح بذلك في موقف الاختيار حيث قال: " كُلك خلق فماذا تروم..."[2].

فخلاصة هذا أن النفري قد انفرد بمقامين اثنين في التصوف الإسلامي رغم أنّه كتب مقامات أخرى كسابقيه من متصوفة عصره كالصبر والتوبة ...إلخ. ولكن مقامي الوقفة والرؤيا لم يتطرق لهما أحد سواه فقد أبدع فيهما إبداعا مبهرا فقد مثلا مذهبه وجوهر فلسفته الصوفية، وهذا ما توصلنا إليه في هذا المجال.

المطلب الثاني: كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة.

لقد حظيت أقوال الصوفية بعناية خاصة قديما وحديثا، لما تفردت به من جمال في المبنى، وغنى في المعنى، فالنفري واحد من هؤلاء المتصوفة الذي يختزل المعاني اختزالا غريبا. فهو يؤسّس نصا من ثلاث كلمات يختزل بها معرفة متكاملة حيث يقول في الموقف 28 وهو الموقف المعنون بـــ :(موقف ما تصنع بالمسألة): "أوقفني وقال لي إن عبدتني لأجل شيء أشركت بي، وقال لي كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة، وقال لي العبارة ستر فكيف ما ندمت إليه، وقال لي إذ لم أسو وصفك وقلبك إلاّ على رؤيتي فما تصنع بالمسألة، أتسألني أن أسفر وقد أسفرت أم تسألني أن أحتجب فإلي من تفيض..."[3].

هذه المقولة العبقرية مازالت تتردد وقد ذكرناها سابقا فمنذ قرون وهي تقف شاهدة على شخصية استثنائية في تاريخ الفكر والفلسفة ولا عجب في ذلك فقائلها هو محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري وهو من أبرز علماء التصوّف في القرن الرابع هجري وتجمع بين التصوّف والفلسفة والأدب، وقد لقيت هذه العبارة صيتا واسعا، فتناقلها

[1]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص558.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، الموقف 50، ص82.
[3]- المصدر السابق، موقف ما تصنع بالمسألة، ص51-52.

الأجيال وذلك لعمقا ونجاحها في تصوير حال الإنسان عندما يعجز عن التعبير عمّا في الوجود عن أسرار وقد تناولها الكثير من الباحثين والنقّاد وأشبعوها شرحا وتأويلا وكأنّها نصاً فلسفيا كاملا[1].

كما نرى ذلك عند عفيف الدين التلمساني في شرحه للمواقف والمخاطبات لهذه العبارة فيقول: "قال اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة" قلت معناه تضيق عبارة العلم لا عبارة المعرفة، ثم تضيق عبارة المعرفة في شهود الوقفة، فإنّ الرؤية دون مقام الوقفة"[2].

الرؤية دائما رحبة متسعة لا تحدها حدود، بينما الكلمات قاصرة عن الإحاطة بالمعاني والأسرار وبالتالي فإنّ الكلمات غطاء للحقيقة وستر لها وعلى ذات الطريقة هذه المقولة.

فالشيخ النفري لم يكن يتوقع أنّه وبعد قرون من وفاته ستكون إحدى مكتشفاته في كتابه المعروف "المواقف والمخاطبات" مدخلا من مداخل الحداثة الشعرية اعتمادا على هذه العبارة.

كما أن للنفري رؤية فلسفية تؤكد عمق نظرته للوجود والموجودات على حد سواء تخلص عبارة كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة حيث أن هاته الأخيرة أثارت العديد من التساؤلات وهي مشكلة حظيت بجهد ليس بالقليل من جانب الفلاسفة قديما وحديثان بل حتى يومنا هذا، ولا شك في أنّ كل جهود الصوفية قد أفرزت آراء مختلفة وتصورات فيما يتعلق بحقيقة الوجود، فالنفري واحد من المتصوفة الذي لم يقلل من اجتهاداته في هاته المشكلة ألا وهي "حقيقة الوجود" إذ أننا نجد عنده أقوال كثيرة تملئ

[1]- الأنترنت www.alkhaleej.ae/meb/detailed-31/05/2019

[2]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص283.

فكره من بين هاته الأفكار نجده يقول: "الأنوار من نور ظهوري بادية، وإلى نور ظهوري آفلة...و...الظلم من فوت مرامي بادية، وإلى فوت مرامي أنية"[1].

يقول شارح المواقف أن الأنوار التي هي الموجودات، والموجودات بأسرها إنّما هي أنوار بادية من نور ظهوره، ولذلك سميت عند أهل الذوق والعرفان مظاهر، وأمّا الظلم فهو التعينات العدمية، والنسب الإضافية، وكل ما يقيّده الذهن اعتبارا ولا وجود له في الخارج فغنها ظله، وكذلك لا يتحقق إلاّ باعتبارات الموجودات، فالقضايا المنطقية كلها من الظلم لأنّ الوجود هو النور ومقابلة الظلمة وهي أيضا جزئية، ولما كان الوجود المحض كانت المعدومات مثل من فاته الوجود، والحق تعالى وجود محض، وفوت الوجود هو العدم، والعدم يرمي إلى العدم[2].

ويرى النفري كذلك أنّ: "... أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه... وأخفيت الباطن وأنا أخفى منه "[3]. أي أراني بقيومية ظهر الظاهر، وأخفي الباطن لتعلق العالم بالظاهر[4]. وقوله في الموقف 2: "... ما مني شيء أبعد من شيء ولا مني شيء أقرب من شيء"[5].

فما من شيء عند النفري من هذا العالم أقرب إلى الله تعالى من شيء آخر من نفس العالم، ولا شيء من هذا العالم أبعد من الله عز وجل من شيء آخر من نفس العالم.

ويقول في موقف الوقفة أنّ: "ما من شيء أقرب إلي من نفسه إلاّ الوجود وبذلك فهو أقرب إلى كل شيء من نفسه وأن الواقف أقرب إلى الوجود من كل شيء"[6]. وبهذا فهو

[1]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الكبرياء، ص04.
[2]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص81-82.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف العز، ص01.
[4]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص58-59.
[5]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف القرب، ص02.
[6]- المصدر السابق، موقف الوقفة، ص15.

يدرك نفسه بالوجود، فالوجود حقيقة نور الله تعالى، والنور أقرب إلى كل شيء من نفسه.

النور عند النفري هو جوهر الوجود وهو شيء ما في الخارج لأنّ الحق تعالى في الخارج وهو النور من أسمائه، ولما كان النور هو الوجود والوجود لا حقيقة للعدم فيه، استحال سكونه كانت حركته بالذات، وذات النور تقتضي الحركات التي عينها[1].

ويظهر هذا في الموقف الذي سماه بالنور حيث أن يرى النفري بأنّ الله تعالى أوقفه في النور وقال له: "لا أقبظه ولا أبسطه ولا أطويه وأنشره ولا أخفيه ولا أظهر، وقال يا نور انبسط وانطوي وانتشر وخفي وظهر، ورأيت حقيقة لا أقبض وحقيقة يا نور انقبض"[2].ويرى كذلك بأنّ الأعيان والذوات إذا جردناها عن الوجود فلم يبق لها ذات فذواتها ليس إلاّ أحكام الوجود، فما ثمّ إذن إلاّ الوجود وهو اه سبحانه وتعالى، وأحكام الوجود هي ذواتنا وما لا ذات له في نفسه إلاّ الاعتبارات في الوجود[3].

وقد ذكره النفري في قوله: "أكشفك لي ولا تغطك فإنك إن تغطيت هتكتك وإن هتكتك لم أسترك فتغطيت ولم أبرزك وتكشفت ولم أتغط... "[4].

ويقول قولا صريحا بأنّ مجرى الأشياء وتوابع الأشياء في القلب ويقول: " آيتي كل شيء وآيتي في كل شيء تجري في القلب كجريان الشيء فتارة تطلع وتارة تحجب تختلف لاختلاف الأشياء وكذلك الأشياء مختلفة لأنّ الأشياء سيارة وآياتها سيارة، وأن مختلف لأنّ الاختلاف صفتك فيما مختلف لا تستبدل بمختلف فإنه إذا دلّك جمعك معك من وجه، وإذا لم يدلّك تفرقت باختلافك من كل وجه"[5].

---

[1]- عفيف الدين التلمساني، شرح المواقف، مرجع سبق ذكره، ص352-353.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف النور، ص72.
[3]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص355.
[4]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف بين يديه، ص73.
[5]- المصدر السابق، موقف رؤيته، ص101-102.

بما أنّ مذهب النفري يقوم على الوقفة، التي تعني عنده انفصالا كليا وتاما عن السوى، فبالتالي لا يشهد الواقف وجودا غير الله تعالى، وبهذا ترتفع الإثنينية بين الله والعالم.

إذن فحقيقة الوجود أو الوجود الحق عند النفري هو وجود الله تعالى واجب الوجود، والوجود الحق لله وليس لوجود سواه، والوجود حقيقة هو نور الله تعالى إذ النور هو جوهر الوجود، ويرفض العالم رفضا تاما، إذ هو من

المبحث الثاني: الذوقية الشعرية

المطلب الأول: أسلوب النفري الفريد

حين نتحدث عن الشيخ النفري(محمد بن عبد الجبار ابن الحسن النفري) وأسلوبه لابد أن نحيط علما بطبيعة البيئة وتأثيراتها على شخصيته فتجده قد أبدع في طريقة كتابته وتسمياته واللغة التي أنتهجها والمصطلحات التي وضعها في مواضيعه فقد وفّق أيّما توفيق في هذا.

"فعلى الرغم مما يقال أنّ لغة المتصوفة تصنع من الأفكار لا من الكلمات فإنّ هناك نمطين من الكتابة الصوفية، الكتابة المذهبية التي تطرح النظرية وخلاصتها الذهنية والكتابة التجريبية التي تتوهّج بروح التجربة الصوفية،... الكتابة الأولى ليست شعرية بل مذهبية، والكتابة الثانية شعرية فنتاج النفري ينتمي إليها فهو يفجّر طاقات اللغة ويراعي النغم والتناسق الصوتي والجمالي في تجربته النثرية التي تكاد تقترب من الشعر، بل قد تكون شعرا موزونا نحو قوله: "أنت معنى الكون كله" (فاعلاتن، فاعلاتن)"[1].

[1]- الأنترنت، www.tawaseen.com/-?p2272.22/11/2015

يرى يوسف سامي اليوسف "أن أهم ما يميّز أسلوب النفري أنه ينبثق من طاقة حدسية لا مصدر لها سوى الراقة السرية الراخمة في أعمق أعماق النفس البشرية وللحق أن كل ما هو أصلي إنما ينبثق من جذر حدسي يتعذر إدراكه بواسطة المفاهيم والتصورات الذهنية وبفضل هذا الزخم الاستبصاري استطاع الرجل أن يحيل اللغة المنثورة إلى شعر أو إلى برهة تتوسط بين الشعر والنثر بل تتوقف بينهما على نحو مدهش"[1]. وهذا ما نجده واضحا وجليا جدا عنده (النفري). فلهذا يمكننا القول "أن تراث النفري الصغير الكمية هو أحسن محاولة بذلتها اللغة العربية كي تجعل النص الصوفي النثري نصا أدبيا يصلح أن يكون برسم الذائقة الأدبية والمتعة الفنية"[2]. وذلك بفضل خيال الكاتب الذي هو جهد إحترافي شديد القدرة.

فهو منهمك بإنشاء نص صوفي شاعري يهدف إلى ان يكون نصاً مقدساً من شأنه أن يسرد العلاقة الراسخة والقادرة على أن تنفي كل فصال وهجران.

وما لاحظناه كذلك أنّه يقدم تجلياته الروحية بأسلوب مركز وبلغة رمزية جذابة تبعث الروح في داخل النص بشكل غير مباشر وهذا جلي وظاهر في كتابه المواقف والمخاطبات إذ لا يخلو موقف أو مخاطبة من هذا ومثال ذلك انه يقول في بداية كل موقف كلمة "أوقفني" ويتبعها بـــ "قال لي"، وفي كل مخاطبة كلمة "يا عبد".

كما أن أسلوب النفري التجديدي في الكتابة يمكن ملاحظته على مستوى شقين:

على مستوى الألفاظ والمصطلحات

- فقد أبدع النفري وابتدع مصطلحات تتماشى مع مذهبه الصوفي وفلسفته التجريدية وهذا ظاهر في أغلب كتابه "المواقف والمخاطبات" نذكر بعضها:

[1]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص06.
[2]- المرجع السابق، ص07.

أولاً: المواقف

فالمواقف كلمة مهمة جدا عند النفري وهو عنوان الكتاب، فنجد عفيف الدين التلمساني تحدث عن هذا المصطلح ومعناه أثناء شرحه للكتاب حيث قال: "أعلم أنّ المواقف هي الحضرات الإلهية التي جرت العادة أن تكون فيها التجليات..."[1]. ونجده أطلق على موقف من مواقفه باسم "موقف وراء المواقف" .

وقال الكثير من الفلاسفة بأنه أول من استعمل هذا الموقف، ونرى ابن عربي يبيّن معنى المواقف حيث يقول في الباب 279 من فتوحاته المكية: "واعلم أنّه ما من منزلة من المنازل ولا منازلة من المنازلات ولا مقام من المقامات ولا حال من الحالات إلاّ وبينهما برزخ يوقف العبد فيه يسمى الموقف وهو الذي تكلّم فيه صاحب المواقف محمد بن عبد الجبار ابن الحسن النفري (رحمه الله)في كتابه المسمى بالمواقف الذي يقول فيه أوقفني الحق في موقف كذا فذلك الموقف مسمى بغير اسم ما ينتقل إليه وهو الموقف الذي لا يكون بعده ما يناسب الأول وهو عندما يريد الحق أن ينقله من المقام إلى الحال ومن الحال إلى المقام ومن المقام إلى المنزل ومن المنزل إلى المنازلات أو من المنازلات إلى المقام، وفائدة هذا الموقف أن العبد إذا أراد الحق أن ينقله من شيء غلى شيء يوقفه ما بين ما ينتقل عنه وبين ما ينتقل إليه فيعطيه آداب ما ينتقل إليه ويعلمه كيف يتأدب بما يستحقه ذلك الامر الذي يستقبله فإن للحق آدابا لكل منزل ومقام وحال ومنازلة..."[2].

ثانيا: الحرف والمحروف

استخدم الشيخ النفري مصطلحي "الحرف و المحروف" مرات عدة في نصوصه الصوفية لذلك يعتبران من أشهر مصطلحاته فمن بين أقواله عن الحرف والمحروف

[1]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره ص321.
[2]- ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر- بيروت. لبنان، د.ت، ص609.

قوله في موقف المحضر والحرف: " أوقفني في المحضر وقال لي الحرف حجاب والحجاب حرف... وقال لي لا يعرفني الحرف ولا ما عن الحرف ولا يعرفني ما في الحرف... وقال لي الحرف فجع إبليس..."[1].

وقوله في موقف الصفح الجميل: "...وقال لي لا تقف في رؤيتي حتى يخرج من الحرف والمحروف"[2].

وقال في المخاطبة 15: "يا عبد ثبت لك الحرف ما أنت مني ولا أنا منك، عارضك الحرف..."[3].

وقال أيضا في المخاطبة 17: "...أنا أقرب من الحرف وإن نطق وأنا أبعد من الحرف وإن صمت... يا عبد أنا رب الحرف والمحروف... وأنا مرقب الحرف والمحروف...يا عبد للحرف حكم أنا مودعه وللمحروف حكم أنا واضعه..."[4].

ويرى يوسف سامي اليوسف "أنّ كلمة الحرف من أشهر مصطلحات النفري، وأحيانا يستخدم كلمة المحروف بمعنى المدلول، أو الشيء الذي يصف الحلاف أو يتوجه إليه ويرى أنّه ما من كاتب عربي آخر استخدم هذه الكلمة بهذا المعنى، إذ الحرف عنده كالعبارة واللغة، يعجز عن اختراق الحقيقة أو يعبّر عنها، إذ هو موطن الريب"[5]. فهو من فصيلة السوى.

ثالثا: السوى

[1]- النفري، مصدر سبق ذكره، الموقف 67، ص114-117.
[2]- المصدر السابق، الموقف 33، ص58.
[3]- المصدر السابق، المخاطبة 15، ص165.
[4]- المصدر السابق، المخاطبة 17، ص 167-168.
[5]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص58.

عند تتبعنا لكتاب المواقف والمخاطبات للنفري وجدنا أنّ مصطلح السوى من الألفاظ التي أبدعها النفري فقد ذكره بكثرة فعنى به كل شيء ماعدا الله تعالى، فهو المادة ومثال ذلك: قوله في الموقف 26 حيث قال: "وقال لي إن جعلت لي غيري عليك مطالبة أشركت بي..."[1].

وفي الموقف 23 يقول: "وقال لي إن تبعك السوى وإلاّ تبعته"[2]. ويقول في المخاطبة 30: "يا عبد مهما كنت والسوى سبب تعترفي فإنّك على عاميتك"[3]. ويقول في المخاطبة 34: "يا عبد إذا رأيتني فالسوى كله ذنب وغذا لم ترني فالسوى كله حسن... يا عبد إذا بدوت أفني السوى وأظهر..."[4].

وحول هذا يقول يوسف سامي اليوسف: "... ما من صوفي قبل النفري عمد إلى استعمال كلمة "السوى" معرفة بأداة التعريف فأغلب الظن أنّه هو الذي ابتكر هذه اللفظة وجعل منها اسما بدلا أن تكون أداة استثناء، والأهم من ذلك أنّ صاحب المواقف والمخاطبات قد اتخذها مصطلحا كبيرا من مصطلحات مذهبه أو عقيدته، وهذا دليل على أنّ الرجل شديد القدرة على الابتكار والتجديد..."[5].

<u>على مستوى اللغة والخيال</u>

* رغم أنّ الغالب على نثر النفري هو طابع التصوف والفكر الصوفي الفلسفي لكنه استطاع أن يلبسه أثوابا جمالية أخرى وهي التشبيهات والاستعارات والمجازات الرائعة و الرموز والخيال والتي مثلت تراثه الصوفي أيّما تمثيل ومنها:

[1]- النفري، مصدر سبق ذكره، الموقف 26، ص 49.
[2]- المصدر السابق، الموقف 23، ص44.
[3]- المصدر السابق، المخاطبة 30، ص185.
[4]- المصدر السابق، المخاطبة 34، ص189.
[5]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص45.

قوله في موقف الوقفة: "وقال لي الوقفة ريحي التي من حملته بلغ إليّ، ومن لم تحمله بلغ إليه"[1]. فهذه استعارة شبّه فيها السالك بالمركب، و الوقفة بالريح التي تسير بالمركب، ومعنى بلغ إليّ: أي إلى شهود ذاتي، ومعنى بلغ إليه: أي بقي مع الأغيار وحجب الأكدار"[2]./ وقوله في الموقف نفسه: "وقال لي الواقف يأكل النعيم ولا يأكله، ويشرب الأبتلاء ولا يشربه"[3]. وفي هذه الاستعارة تشخيص للنعيم والابتلاء، والمعنى أنّه يتنعم ولا يملكه حبّ النعيم فينحجب به، ويتألم ولا يملكه الجور فينحجب به"[4]./ قوله في موقف محضر القدس: " ... وقال لي لا يصلح لحضرتي العارف قد بنت سرائره قصورا في معرفته فهو كالملك لا يحب أن يزول ملكه "[5]، فهو يشبه هذا العارف الذي يخشى من الحق تعالى محو معارفه وبين الملك الذي يخشى كذلك زوال ملكه .

قوله في موقف قد جاء وقتي: "...وقال لي آثر نظري في كل شيء فإن خاطبته على لسانك قلبته"[6]، أي أنّ نفسك تتأثر من ملاحظاتها إياي فذلك الأثر من نظري في الشيء الشيء المنظور في كل شيء والحالة هذه هي قسطي فمتى خاطبته خطاب المخلوقين فقد قلبته عن معنوية ما هو قسطي إلى معنوية ما هو قسطك، وهذا هو قلب في عيان العبد لا في نفس الأمر واستعماله القلب وإن لم ينقلب مجاز، وهذا الكلام فصيح فلذلك تكثر فيه الاستعارات والمجازات الرائعة على عادة الفصيح من الكلام[7].

قوله في موقف المطلع: " وقال العلم بابي والمعرفة بوابي..."[8]. وهذا كذلك تعبير مجازي، إذ شبه العلم بالباب والمعرف بالبواب.

---

[1]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الوقفة، ص13.
[2]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص134.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الوقفة، ص11.
[4]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص 123.
[5]- النفري، مصدر سبق ذكره، الموقف 63، ص 106.
[6]- المصدر السابق، الموقف 5، ص06.
[7]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص95.
[8]- النفري، مصدر سبق ذكره، الموقف12، ص24.

وقوله في موقف الأعمال: "...وقال لي إذا سلكت من وراء الدنيا اتتك رسلي متلقين تعرف في عيونهم الشوق وترى في وجوههم الإقبال والبشرى، أرأيت غائبا عن أهله فأذنهم بقدومه أليس إذا قطع مسافة القاصدين وسلك في محبة الداخلين تلقوه أمام منزله ضاحكين وأسرعوا إليه مستبشرين..."، فالذين يسلكون من وراءهم من أهل الآخرة فلذلك تلقاهم ملائكة الآخرة تلقى الأهل للغائب، فلو لم يكونوا من أهل الآخرة لما شبههم بالنسبة للآخرة للغائب عن أهله وقد أذنهم بقدومه ففرحوا واستبشروا به فرح الأهل بالأهل[1]، استعمل التشبيه في هذا القول.

قوله في موقف العز: " ...أنوار عزّتي فما أتت على شيء إلا أحرقته، فلا لها منظر في السماء فتثبته، ولا مرجع في الأرض فتقربه"[2]، استعارة الإحراق أي أن أنوار عزته تعالى إذا أتت على الأشياء فأنها تعدمها./ وقوله في موقف معرف المعارف: "...إذا عرفت معرفة المعارف جعلت العلم دابة من دوابك..."[3].فالاستعارة في قوله" دابة من دوابك"، أي يكون العلم بيدك تملكه وتتصرف فيه كيفما تشاء، وتركبه إلى حيث أنت فكأنه لا يحكم عليك بخلاف الجاهل بها"[4].

هذه بعض الاستعارات والمجازات والتشبيهات التي استعملها النفري في كتابه، وهذا دال على فصاحته اللغوية القوية

*إذن لغة النفري لغة مختزلة، فهو يختزل المعاني اختزالا غريبا، فهو يؤسس نصا من ثلاث كلمات أو أربع كلمات، فيقول مثلا في الموقف 4:" أنت معنى الكون كله"[5]. وقوله في موقف لا تفارق اسمي:" كذب القلب استماع الكذب، التمني من كذب

[1]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص184-185.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، الموقف 1، ص02.
[3]- المصدر السابق، الموقف11، ص12.
[4]- عفيف الدين التلمساني ، مرجع سبق ذكره، ص454.
[5]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف أنت معنى الكون، ص 05.

القلب..."[1]. وفي المخاطبة7 يقول:" الحزن عليّ حقيقة الحزن"[2]، فنجد هنا عبارات تحمل كل عبارة منها أربع كلمات مثلث نصا مختزلا من نصوص النفري الصوفية. وفي موقف الموت يقول:" أنا وليّك، فثبت.أنا معرفتك، فنطقت. أنا طالبك، فخرجت."[3]، وفي المخاطبة28 يقول:" يومك هو عمرك"[4]، فهذه أربع عبارات تحمل كل عبارة منها ثلاث كلمات مثلث نصا صوفيا مختزلا من نصوص النفري.

فنلاحظ أن نصوص الشيخ النفري جلها على نفس المنوال الذي ذكرناه فهو قادر على الاختزال في نصوصه ليقدم نصا صوفيا دقيقا وفصيحا في عباراته.

المطلب الثاني:المزج بين الشعر والنثر:

تعتبر قصيدة النثر في الوقت الحالي النوع الشعري الأكثر إشارة حول طبيعته وهويته، وتكاد النظرة العامة لمنتج هذا الشكل الشعري تتفق في مرجعيتها الغربية نحوه، وبالتالي تبدو هذه القصيدة في سياق الحركة الشعرية العربية، هكذا كمثل ورم شعري خبيث اعترى الجسد الشعري نهاية المطاف[5].

نشير كذلك إلى حركة مجاورة (النثر الفني)ولكنها عاشت مهمشة ومنعزلة على أهميتها الإبداعية، وهي حركة (النثر الشعري الصوفي) حينئذ، التي ظهرا كحالات

[1]- المصدر السابق، موقف لا تفارق إسمي، ص 46.
[2]- المصدر السابق، المخاطبة 7، ص154.
[3]- المصدر السابق، موقف الموت، ص 35.
[4]- المصدر السابق، المخاطبة 28، ص184.
[5]-المفاهيم النظرية للأنواع الشعرية في شعر ما خارج الوزن(قصيدة الشعر الحر)، 1يوليو1998/www.nizwa.com

متوهجة في عزلتها والتي تشكل الوجه الآخر الباطني لحركة النثر الفني وهو الانبثاق الحداثي الحقيقي لعلاقة الشعر بالنثر في شكل أكثر تعقيدا، في طواسين الحلاج، ومواقف النفري ومخاطباته والإشارات الإلهية لتوحيدي، حيث نشهد ثورة باللغة على اللغة لتأسيس مشهد جديد، يكشف عن تجارب روحية هادرة تنزع للتحرر[1].

عند قراءتنا منذ اللحظة الأولى لنص النفري " المواقف والمخاطبات" يواجهنا سؤالا محير وهو هل ينتمي هذا النص الغريب إلى الشعر أم إلى النثر؟.

فقصيدة النثر الشرقية بدأت من كتب المتصوفة فالشيخ النفري كان بابها المشرع للتأويل فنجد بأن الكثير من الفلاسفة والكتاب تحدثوا عن أهمية كتاب "المواقف والمخاطبات" بأنه كتاب شعري بامتياز بل يمثل أعلى قمم الشعر موضوعا وبناءا فنيا وهذا واضح وجلي في كل شذرة من كتابه.

وما لاحظناه عند بحثنا وقراءتنا المتكررة في كتابه بأنه يحمل شعرا من فيض شرقي، وأن هناك جذرا عربيا لقصيدة النثر، ممثلا في شعرية النفري، فلو نظرنا إلى نصوص النفري أنموذجا لرأيناها تزخر بالتكثيف والانزياح اللغوي والاختصار والدخول إلى لب الرؤية الصوفية للوجود وللذات الإنسانية بعامة، فطوال قراءتنا لهذه النصوص كنا نتعامل معها بوصفها نصوصا شعرية خارقة للجمود المتداول قياسا بزمانها ومكامن حالات قولها لا يمكن لنا إلا أن نضع هذه النصوص كنواة لنصوص القصيدة النثرية العربية الجديدة

وسنورد بعض النماذج من نصوصه لنزيد الأمر وضوحا:

"وقال لي نم لتراني، فإنك تراني، واستيقظ لتراك، فإنك لا تراني"[2].

---

[1]- المرجع السابق

[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الاختيار، ص82.

"وقال لي كل واقف عارف، وما كل عارف واقف"[1]

"كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة"[2].

ونرى مقطوعة أخرى عميقة مدهشة ومذهلة "وقال لي اقعد في ثقب الإبرة ولا تبرح، وإذا دخل الخيط في الإبرة فلا تمسكه، وإذا خرج فلا تمده، وافرح فإني لا أحب إلا الفرحان، وقل لهم قبلني وحدي وردكم كلكم، فإذا جاؤوا معك، قبلتهم ورددتك، وإذا تخلفوا عذرتهم ولمتك، فرأيت الناس كلهم براء"[3].

"وقال لي أنت معنى الكون كله"[4].

"وقال لي ليس الكاف تشبيها هي حقيقة أنت لا تعرفها إلا بتشبيه"[5].

" أوقفني في البحر فرأيت المراكب تغرق، والألواح تسلم، ثم غرقت الألواح، وقال لي لم يسلم من ركب.. وقال لي خاطر من ألقى بنفسه ولم يركب وما خاطر.. وقال لي في المخاطرة جزء من النجاة"[6].

ويقول في المخاطبة الأولى.

"يا عبد أنا الحاكم الذي لا يحكم عليه، وأنا العالم الذي لا يطلع عليه"./"يا عبد لولا صمودي ما صمدت ولولا دوامي ما دمت"[7].

و يقول أيضا:

[1]- المصدر السابق، موقف الوقفة، ص12.
[2]- المصدر السابق، موقف ما تصنع بالمسألة، ص51.
[3]- المصدر السابق، موقف التيه، ص75.
[4] المصدر السابق، موقف أنت معنى الكون، ص5.
[5]- المصدر السابق، موقف الثوب، ص78.
[6]- المصدر السابق، موقف البحر، ص7.
[7]- المصدر السابق، المخاطبة 1، ص145.

"يا عبد أنا الدائم فلا تخبر عني الآباد، وأنا الواحد فلا تشبهني الأعداد"./ "يا عبد أنا الظاهر فلا تراني العيون، وأنا الباطن فلا تطيف بي الظنون"[1]

"عندما أصدر أدونيس كتابه "الصوفية والسريالية" عام 1992 ضمّنه النص الذي كان كتبه عن النفري، ...سعى من خلاله إلى ترسيخ نصوص النفري كمرجع من مراجع الحداثة الشعرية ...ولعل موقف أدونيس من نصوص النفري حفز الكثير من شعراء قصيدة النثر على جعل هذه النصوص مصدرا تراثيا من مصادر هذه القصيدة بعدما وجدوا فيها تجربة شعرية نثرية بامتياز، هكذا أصبح النفري في نظر هؤلاء الشعراء واحدا من الآباء العرب لقصيدة النثر العربية وكان لهم بمثابة الحجة التي يناقشون بها "أعداء" هذه القصيدة"[2].

فالكتابة النفرية حملت في طياتها بذور التأسيسية لقصيدة النثر وهذا الرأي يتبناه جملة من الأدباء وعلى رأسهم الأديب الكبير أدونيس، حيث أنه قال " ولعلّ أعمق ما يميّز شعرية هذا النص هو أن تفجّر الفكر فيه إنما هو تفجّر اللغة نفسها ويمتلئ هذا التفجّر بالإشراقات المفاجئة، والتوترات المتضادة المتعانقة،...فالفكر هنا شعر خالص، والشعر فكر خالص"[3]. فهذا القول يؤكد بأن اللحظة الفكرية في نص النفري هي لحظة شعرية في آن واحد.

إذن استطاع النفري أن يحيل بين اللغة المنثورة لا إلى الشعر وحسب بل إلى النثر قبل كل شيء وإن لم تكن كتابته شعرا فإنها في برهة الوساطة بين الشعر والنثر لأنه يقدمهما لنا على نحو مدهش، فلهذا يمكننا القول بأن تراث النفري صغير الكمية ولكنه أفضل محاولة بذلتها اللغة العربية لكي تجعل من النص النثري نصا أدبيا ذات متعة

[1] المصدر السابق، المخاطبة 56، ص 212.
[2]- ينظر عبدو وازن www.aljaml.com/2010
[3]- أدونيس، الشعرية العربية، مرجع سبق ذكره، ص66.

فنية وهذا بفضل خيال الكاتب الواسع الذي يسعى بأن يكون نصه نصا صوفيا شاعريا يبين لنا فيه علاقة العبد بربه والمحبوب بمحبه .

وما يمكننا قوله في الأخير هو أن نصوص النفري مفعمة بالإيقاع الداخلي الذي يجسده وقع المفردات ولعبة التكرار والسجع والابتعاد عن شرائك الفصاحة والبلاغة والتصنع رغم كثرة المصطلحات الصوفية التي لم ترهق النصوص بتاتا فهي نصوص تحاور الغيب والباطن وترفع الكتابة الشعرية إلى مستوى لم تعرفه من قبل في أبهى وأغرب ما تتيحه اللغة لهذا تقرأ بمتعة كبيرة بدون ملل نظرا إلى انسيابها اللفظي وبساطتها الظاهرة.

المبحث الثالث: الحس الديني

إنّ العالم مصحف كبير خطّه الحق بأحرف الموجودات، كما أنّ القرآن الكريم كلام الحق إلى الخلق، وهو الوجود المكتوب بأحرف لغوية . هنا نتساءل عن مدى تجلي الحس الديني وفي كتاب المواقف والمخاطبات للنفري

*المطلب الأول: المصادر الدينية عند النفري

إنّ النفري اطلع على تراث الديانات الأخرى فمن خلال سياقات نصوصه الدلالية وبناءاتها المعرفية واللغوية نراه يركز على صراع الأضداد والديانات كما أشار إلى ذلك يوسف سامي اليوسف في كتابه مقدمة للنفري بقوله: "تأثر النفري بالديانات القديمة كالبوذية والمانوية التي تعتبر نتاجا للديانات البوذية، ومواطن المانوية بابل ولقرب المكان الذي ولد وعاش فيه النفي ، فقد تأثر بتراث هذه الديانات التي بقيت آثارها قائمة حتى زمن ظهور الإسلام، فالاثنينيات من خير وشر، نور وظلام، ولادة وموت، دنيا وآخرة، فقد وردت في نصوص النفري بل وقد تجاوزتها ثمّ إنّ هذه الأضداد موجودة في تراث المسلمين وفي الكتاب الكريم..."[1].

عرف النفري بكتابه المواقف والمخاطبات بل وأشتهر به، فإذا قمنا بتصفح الكتاب ودراسته يتبيّن لنا أن النفري لم يتقيّد كثيرا بالآيات القرآنية، رغم أنّه يحمل نفس الصياغات والاشتقاقات الأسلوبية للكتب المقدسة، وإذ تعمقنا أكثر في الكتاب وجدناه اعتمد على بعض الآيات التي خدمت فلسفته التجريدية، فمن خلال الاطلاع على كتابه المواقف والمخاطبات نلاحظ أنّه لا يخلو موقع من ذكر النبرة الدينية وهذا واضح وجلي من خلال تسمياته للمواقف (موقف العز، موقف الكبرياء، الموت، أنت معنى الكون، الحجاب، الإسلام...إلخ.) دلالة على أنّه متعلق بالله عز وجلّ و أنّه يرى الحقيقة الإلهية من وراء مل الأشياء ويقول يوسف سامي اليوسف في كتابه: "أنّ المناخ الإسلامي يشكل خلفية واضحة للنصوص النفرية إن لم نقل معظمها"[2].

إذن كتب النفري خالية من الغزل بنوعيه العفيف، المجان ومن الرومنسية وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على تعلّقه الشديد بالخالق وابتعاده الكلي عن أمور الدنيا وملذاتها وعن الشهوات...إلخ. فحرصه الشديد هو أن يبيّن لنا علاقة المحب بمحبوبه والعبد

[1]- ينظر، وليد عبد الله، الفكر الصوفي عند النفري، تأمّل في مقامي "الوقفة والرؤيا" slideshare.net/mazizaacrizal/ss.18713517.

[2]- يوسف سامي اليوسف، الفكر والتصوف في فلسفة النفري،دار رسلان للنشر والتوزيع، 2016، ص71.

بربه وما ينجلي ذلك من التسليم وتفويض الأمر غايه وأن يسلك طريقه هو كما يشير إلى هذا النفري قائلا:

"أوقفني في الإسلام وقال لي هو ديني فلا تبتغي سواه فإنّي لا أقبل[1]".ويعلّق على هذا عفيف الدين التلمساني ويقول: "وقال الله تعالى: إنّ الدين عند الله الإسلام"[2].

فمن المشارب التي استقى منها النفري:

1. من القرآن الكريم:

(... فالملاحظ أنّ النفري يركز في توظيفه للقرآن الكريم على كلمات من آيات وليست آيات كاملة، كما أنه يركز على الآيات التي ورد فيها الحوار بين الله و الأنبياء و الأولياء و يرغب في استعادة شروط الخطاب القرآني الشفهي. ففي موقف الصفح الجميل يقتبس كلمتي: " نسيًا " و" منسيًّا " من قوله تعالى: "قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً". فيدخل الكلمتين في سياق جديد في قوله: "وقال لي اجعل سيّئتك نسيًا منسيًا، ولا تخطر بك حسنتك فتصرفها بالنّفي"[3].

وفي المخاطبة 11 قوله: "... إذا بدت لا تبقي ولا تذر"[4]. فقد وظّف كلمتي " لا تبقي "و "لا تذر" الموجودتان في سورة المدثر الأية 27 في نصه هذا.

وجاء كذلك في الموقف 33، موقف الصفح الجميل: " وقال لي إذا قلت للشيء كن فيكون نقلتك إلى النعيم بلا واسطة وقال لي أطعني أنا الله لا إله إلاّ أنا أجعلك تقول لشيء كن فيكون "[5]. فنجده كرر لفظة " كن فيكون " مرتين. ومعنى ذلك إذ أشهدتك

[1]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الإسلام، ص138.
[2]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص539.
[3]- بن عكنون سامية، الاشتغال الأنطوبلاغي، مرجع سبق ذكره، ص138.
[4]- النفري، مصدر سبق ذكره، المخاطبة 11، ص159.
[5]- المصدر السابق ، موقف الصفح الجميل، ص58.

أنّك لست بخير، وجدت النعيم لا بواسطة علم نافع ولا عمل صالح ولا شفاعة شافع، والكلام أنّ الولي هل يبلغ إلى أن يقول للشيء كن فيكون أم لا هو ممّا لا يذكر إلاّ مشافهة، وذلك الذي يذكر مشافهة هو سرّ قوله له في التنزّل الذي يعدّ هذا (وهو قوله المعنى: لأنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا، أجعلك تقول لشيء كن فيكون)[1]. أي أنّ الله تعالى هو الحق وهو الذي لا يتعاظم على قدرته شيء فإذا ما أراد فعل شيء فإنّما يفعله ويخلقه بأمره الكوني له: كن فلا يتأخر ذلك الشيء الذي أراده، بل يكون من فوره.

فهاته العبارة نجدها في القرآن الكريم في مواضع عدّة منها: قال الله تعالى: " وإنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون " سورة يس الآية 82[2].

وكذلك قوله تعالى: "بديع السموات و الأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون "[3].سورة البقرة– الآية 117. ونفس الجملة وظفها في موقف آخر وهو الموقف 28 موقف ما تصنع المسألة فقد كررها مرة واحدة في قوله : "وقال لي إذا رأيتني لم يبق لك إلا مسئلتان تسألني في غيبتي على رؤيتي وتسألني في الرؤية أن تقول لشيء كن فيكون"[4].

وفي الموقف الأول وهو موقف العز يقتبس ثلاث كلمات وهي" السماء "، " تمور"، "مورا "، من قوله تعالى: "يوم تمور السماء مورا"[5]. الآية 9 من سورة الطور. فهو يدخل هاته الجملة في سياق آخر في قوله: "وقال لي أين من أعدّ معارفه للقائي لو أبديت له لسان الجبروت لأنكر ما عرف، ولمار مور السماء يوم تمور مورا"[6].

[1]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص301.
[2]- سورة يس- الآية82.
[3]- سورة البقرة - الآية 117.
[4]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف ما تصنع بالمسألة، ص52.
[5]- سورة الطور- الآية 09.
[6]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف العز، ص 01.

ويورد شذرة أخرى يوظف فيها كلمة " نبشّر " التي وردت في سورة مريم في قوله تعالى: " يا زكريا إنّا نبشرك بغلام اسمه يحي لم نجعل له من قبل سميًّا"، ولكنه يعيد تصريف الفعل من ضمير جمع المتكلمين إلى ضمير المفرد المتكلم، أي يرتقي من الخطاب الإلهي بواسطة الملك إلى خطاب ثنائي دون وساطة وهو وضع الخطاب الشفهي دائما (...)، في قوله: " قد بشّرتك بالعفو فاعمل به على الوجد بي وإلى لم تعمل"[1].

ونجده اعتمد ثلاث كلمات من آية قرآنية في مواضع أربعة من مواقفه الصوفية وهذه المواضع كالتالي:

فقد وظّف عبارة " ليس كمثله شيء " التي ذكرناها سابقا التي استقاها من سورة الشورى، من قوله تعالى: " فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"[2]. سورة الشورى، الآية11.

وقد أدخل هاته الجملة على هذا النحو في الموقف 11 الذي أطلق عليه (معرفة المعارف) حيث ذكرها مرتين في هذا الموقف إذ قال: "أوقفني في معرفة المعارف وقال لي في الجهل الحقيقي من كل شيء وقال صفة ذلك في رؤية قلبك وعقلك وأن تشهد بسترك كل ملك وملكوت وكل سماء وأرض وبر وبحر وليل ونهار ونبي وملك وعلم ومعرف وكلمات وأسماء وكل ما بين ذلك يقول " ليس كمثله شيء"، وترى قوله " ليس كمثله شيء " هو أقصى علمه ومنتهى معرفته "[3]. فهي حقيقة صوفية دينية، هي

[1]- بن عكنون سامية، الإشتغال الأنطوبلاغي، مرجع سبق ذكره، ص 139.
[2]- سورة الشورى - الآية 11.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف معرفة المعارف، ص19.

أنّ الذات الإلهية ليس لها مثيل ولا نظير شهدت بذلك الأكوان والخلائق...إلخ حتى صرحت أنّ (ليس كمثله شيء) .

واستعمل نفس الجملة في الموقف الرابع عشر الذي أطلق عليه موقف الأمر، حيث ذكرها ثلاث مرات إذ قال: "...وقال لي مقامك مني هو الذي أشهدتك تراني أبدي كل شيء ويرى النار تقول ليس كمثله شيء وتر الجنّة تقول ليس كمثله شيء وترى كل شيء يقول ليس كمثله شيء فمقامك مني هو ما بيني وبين الأبداء "[1].

"ومعناه أنّ الشيء عند هذه الطائفة اسم للوجود ، والحق تعالى وجود، فهو منشزه عن الشيئية، وإذا كان كذلك فكل ما أبداه الوجود فصار شيئا فليس هو كمبدئه تعالى، فالشاهد إذا شهد هذا رأى كل شيء يقول ليس كمثله شيء، أي ليس هو من عالم الشيئية"[2]. وهنا العبارة تمثّل مؤشرا عن العجز الذي يلحق كل الموجودات في مرتبة الإيمان أو الرؤية الجزئية، تقف فيه الموجودات عاجزة عن إنجاز الكينونة الواحدة مع الحق.

وفي الموقف35 الذي أطلق عليه موقف اسمع عهد ولايتك، إلاّ أنّه أضاف لثلاث كلمات السابقة الذكر الكلمتين اللتين بعدها، وهذا في قوله: " وقال لي كيف تنظر إلى السماء والأرض كيف تنظر إلى الشمس والقمر وكيف تنظر إلى كل شيء كان منظورا لعينك أو كان منظورا لقلبك وذاك أن تنظر إليه باديا منّي وهو أن تنظر إلى حقائق معارفه التي تسبّح بحمدي وتقول ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"[3]. وفي الموقف 59 الذي أطلق عليه حق المعرفة، حيث كررها مرتين إذ قال: " أوقفني في حق المعرفة وقال لي أمل الآن ففوق وتحت وكل و ما بدا فهو دنيا وكله وكل ما فيه ينتظر

[1]- المصدر السابق، موقف الأمر، ص31.
[2]- عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره ، ص208.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف، اسمع عهد ولايتك، ص62.

الساعة وعلى كله وكل ما فيه كتبت الإيمان وحقيقة الإيمان ليس كمثله شيء وقال لي فاشهد جبريل وميكائيل واشهد العرش وحملة العرش واشهد كل ملك وكل ذي معرفة ترى حقائق إيمانه تقول وتشهد أنّه ليس كمثله شيء..."[1]. وكثرة استعمال النفري للآية 11 من سورة الشورى دليل على رفضه للمادة ونبذه للحياة .

جاء في الموقف الخامس وقال: " وقال لي قد جاء وقتي وآن لي أن أكشف عن وجهي وأظهر سبحاني ويتصل نوري بالأفنية وما ورائها... وأدخل على كل بيت ويسلمون عليّ وأسلم عليهم، وذلك بأنّ لي المشيئة وبإذني تقوم الساعة وأنا العزيز الرحيم "[2].

نرى أنّ الله عز وجل يخبر عبده بأنّ ساعتك أيها العبد تموت عند شهود نفسك وتحي به... زمن مات فقد قامت قيامته...، أمّا العزيز الرحيم فمعناها الوحداني الوجود فإنّها عزة... فذلك إشارة إلى ظهور المهدي وهو خليفة الله في وجوده..."[3].

فقد وردت " العزيز الرحيم " و " قيام الساعة " في القرآن الكريم مرات عدة وفي مواضع عدة نذكر منها قوله في سورة الشعراء الآية 9 : " إنّ ربك لهو العزيز الرحيم ". وفي نفس السورة الآية 217 قوله تعالى: "وتوكل على العزيز الرحيم"[4].

وكذلك اعتمد على أجزاء من آيات أخرى في مواضع أخرى من مواقفه الصوفية وهذا في:

الموقف الخامس والعشرون الذي أطلق عليه اسم أنا منتهى أعزائي حيث قال: "...وقال لي والذين جاهدو فينا الذين رأوني فلما غبت غطّوا عيونهم غيرة أن يشركوا بي في الرؤية"[5]. نرى أنّ "جاهدوا فينا" مقتبسة من الكتاب الكريم وجاء في الموضع الآتي: قال

[1]- المصدر السابق، موقف حق المعرفة، ص102.
[2]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف قد جاء وقتي، ص06.
[3]- عفيف الدين التلمساني، شرح المواقف، مرجع سبق ذكره، ص98و100.
[4]- سورة الشعراء – الآية 09 و217.
[5]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف أنا منتهى أعزائي، ص48.

تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين"[1]. الآية 69 من سورة العنكبوت، ومعناه أنّ أهل الرؤية يرون المجاهدة في الله لا في سبيل الله لأنهم لا يرون غيره[2]. وجاء في نفس الموقف كذلك: " وقال لي لنهدينهم سبلنا و لنكشفنّ لهم في كل شيء عن مواقع نظرنا فيه"[3].

الموقف 70 وهو موقف القوة حيث قال: " وقال لي إذا تصرفت في كل متصرف بالقوة لم تمل وإذا لم تمل استقمت وإذا استقمت فقل ربي الله قال الله تعالى: " إنّ الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنّة التي كنتم توعدون"[4]. وهذه الآية جاءت في سورة فصلت الآية30.

فمعنى ذلك أنّ الاستقامة كما قال الله تعالى: " فاستقم كما أمرت " من سورة هود الآية112. فإذا لم يجد السالك في نفسه توقفا في العمل ولا كسلا ولم يجد في نفسه اقداما على المنهى عنه ولا أسفا على قوته فهو الذي استقام كما أمر فتتنزل عليهم الملائكة..."[5].

المخاطبة رقم 7 حيث قال: "... يا عبد همك المحزون عليّ كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء "[6] وهي الآية 24 من سورة إبراهيم جاءت في هذا الموضع : قال قال تعالى : " ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفروعها في السماء "[7].

[1]- سورة العنكبوت - الآية69.
[2]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص276.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف أنا منتهى أعزائي، ص48.
[4]- المصدر السابق، موقف القوة، ص125.
[5]- عفيف الدين التلمساني، شرح المواقف، مرجع سبق ذكره، ص504.
[6]- النفري، مصدر سبق ذكره، المخاطبة 07، ص154.
[7]- سورة إبراهيم - الآية 24.

ويعنى هذا أنه يقول ألم تعلم يا عبد أن همك المحزون كالشجرة الطيبة (النخلة) هي مثبتة في الأرض ولكن غصنها في السماء.

المخاطبة 9 حيث قال : " يا عبد رأيتني قبل الشيء فعرفت ما رأيت وهو الذي إليه تصير، وإنّي سآتيك من وراء الشيء فإذا رأيتني ورأيته فاستعد بي مني وصدقني على ما أثبت فيه به منه احتجبت من ورائه فيبقى لا حكم له به وأردك إلى ما رأيت قبله، تلك أمانتي عنده ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا " [1]. وهي الآية 10 من سورة الفتح وهذا في قوله تعالى: " إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنّما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما"[2].

أمّا بالنسبة للفظ " القرآن " فقد ذكره في موضعين في اثنين وهما: النص الوارد في الموقف 72 وهو موقف الصفح الجميل، حيث قال: " ... وقال لي إن كنت من أهل القرآن فبابك تلاوة لا تصل إلا منه..."[3]. فأهل القرآن هم القوم الذين وقف بهم الاستعداد هناك فقاموا بما وجب عليهم وبما طلب منهم[4].

ويقول في موقف المحضر والحرف: " القرآن يبني والأذكار تغرس "[5].

ويقول شارح المواقف بأنّ القرآن يبني الدين والأذكار تغرس فيه ثمر القرب[6].

تبيّن أنّ النفري ليس كغيره من متصوفة عصره في الاقتباس من القرآن الكريم إنّهم مولعون به.

---

[1]- النفري، مصدر سبق ذكره، المخاطبة 09، ص157.
[2]- سورة الفتح - الآية 10.
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره ، موقف الصفح الجميل، ص133.
[4]- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، مرجع سبق ذكره، ص525.
[5]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف المحضر والحرف، ص121.
[6]- عفيف الدين التلمساني، شرح المواقف، مرجع سبق ذكره، ص393.

2. من الأحاديث النبوية:

أمّا بالنسبة لأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا حضور لها في نصوص النفري الصوفية مع ورود بعض صياغاتها واشتقاقاتها ومعانيها فنجد مثلا في موقف الأعمال الذي قال فيه: "... وقال لي زن العلم بميزان النيّة وزن العمل بميزان الإخلاص "[1]. فهو يحمل معنى حديث الأعمال بالنيات المعروف وهو كالآتي: عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله (ص) يقول : إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكل امرئ ما نوى ...فهجرته إلى ما هاجر إليه " رواه البخاري ومسلم[2].

وجاء في الموقف الرابع والسبعين: " وقال لي: كما يأتيك التثبيت في تهجدك، كذا يأتيك التثبيت في يوم موردك "[3]. فهذا مضمون قوله عليه الصلاة والسلام " إنّما هي أعمالكم ترد عليكم[4].

إذن النفري لا يقتبس من القرآن الكريم ولا من السنة النبوية إذ لا حضور لهما في تراثه الصوفي إلاّ القليل منهما، ونجد أكثر مواقفه تعبيرا بالمعنى عن ما يوجد في القرآن و السنة النبوية، وهذا ما يؤكده لنا يوسف سامي اليوسف في كتابه مقدمة للنفري حيث قال: " ممّا هو لافت للانتباه أنّ النفري لا يقتبس من القرآن الكريم إلاّ القليل فحسب، أمّا الحديث الكريم فلا حضور له في تراث النفري اللهم إلاّ أن يكون ذلك على نحو طفيف أو غير ملحوظ فممّا هو جد شائع أنّ الكتّاب الصوفيين مولعون باقتباس الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، أمّا النفري فشديد الابتعاد عن التقليد"[5].

---

[1]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف الأعمال، ص26.
[2]- الأحاديث النبوية، الحديث الأول .
[3]- النفري، مصدر سبق ذكره، موقف العبادة الوجهية، ص135.
[4]- ينظر، عفيف الدين التلمساني، مرجع سبق ذكره، ص531.
[5]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص30.

وربمّا السبب في عدم اعتماده على القرآن الكريم والأحاديث النبوية هو ما تبيّن في البحث الذي ألقي خلال أمسية أقامها المنتدى الثقافي العراقي يوم الأحد 26 أوت 2000م، الذي كان موضوعه الفكر الصوفي عند الشيخ النفري وليد عبد الله: " يبدو أنّ عدم ذكر الشيخ النفري للنصوص القرآنية، وأقوال الأنبياء يعود إلى دعوته لتبني فلسفة التجريد التام، وبناء ذاكرة جديدة والوصول إلى الحقيقة بدون تسميات أو معارف أو كرامات أو عناوين فهو أبدع مقامين يتلاءمان وهذه الفلسفة الجديدة ... "[1]. وبالإضافة إلى ذلك أنّ نصوص النفري في كتابه المواقف والمخاطبات التي هي عبارة عن وقفاته بين يدي الله عز وجل، هذه الوقفات والمخاطبات التي لا تحتاج إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

المطلب الثاني:الروافد المعرفية لنفري

*يعتبر النفري من أكبر متصوفة بغداد المغمورين في القرن الرابع الهجري، وبالرغم مما شهدته الدولة الإسلامية آنذاك من انقلابات سياسية، وغارات حربية، لم يحط ذلك من جودة العطاء الأدبي وهو يمثل بحق العصر الذهبي للأدب و التصوف على حد سواء، حيث ضم هذا العصر بين دفتيه أهم الآثار الصوفية :كالموقف والمخاطبات لعبد الجبار النفري، وكتاب اللمع في التصوف لأبي سراج الطوسي، وكتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد لأبي طالب المكي والعديد العديد من المؤلفات القيمة التي لا يسع مقام الدراسة على الإتيان بذكرها كاملة.

والنفري هو أديب من المتصوفة الذين يعتمدون على الذات فقط في مجال التصوف، إذ نجد مواقفه الصوفية التي مثلت أكبر تراثه الصوفي، اعتمادا كليا على أقوال تلقاها من ربه– تعالى–، أو أقوالا خاطبه الله تعالى بها تمثلت في المواقف والمخاطبات، فعند

[1]- الأنترنت.www.maaber.erg/tenth-issue/spiritual-traditions-2htm

تتبعنا لنصوصه الصوفية وجدنا حضورا كليا لذاته، فكان خطابه صدورا مباشرا من الله تعالى، وهذا ما ذهب إليه يوسف سامي اليوسف بل حيث قال :"أول ما بلغت انتباه القارئ لخطاب النفري هو أنه يختلف كثيرا عن الموروث الصوفي العام، وذلك من حيث أنّ الخطاب صدور مباشر عن المصدر الذي تصدر منه الأشياء برمتها، أو قل بوصفة حوار بين الطرفين، أولهما مطلق وثانيهما محدود... يصب جملة جهده على إنشاء نص... على نحو واضح، أن يكون نصا مقدسا عليا، لا يشرح شيئا سوى العلاقة الراسخة التي من شأنها أن تحذف كل فصل وهجران"[1].

إذن خطاب النفري هو صدور مباشر عن خالق الأشياء أو هو يتلقى كلاما من الله عز وجل تمثل في مواقفه الصوفية ومخاطباته.

والواضح عن النفري كما ذكرنا سابقا انه كان يهوى الاختباء والاختفاء بعيدا، وقلنا بان ذلك راجع لما حل بالحلاج آنذاك، الأمر الذي جعل من النفري منعزلا عن المشاهد الاجتماعية مما اكسبه فسحة نفسية مكنته من الارتقاء في الإنتاج الأدبي يتسم بالغموض والانغلاق، والاطلاع الثقافي

يتضح جليا أن النفري كان له اطلاع على الديانات والمذاهب الأخرى وخير دليل على ذلك سياقات اللغوية الحافلة بطاقات معرفية ودلالية كما تحدث يوسف سامي اليوسف عن هذا قائلا: "تأثر النفري بالديانات القديمة كالبوذية و المانوية التي تعتبر نتاجا للديانة البوذية وموطن المانوية بابل، ولقرب المكان الذي ولد وعاش فيه النفري منها فقد تأثر بتراث هذه الديانات التي بقيت آثارها قائمة حتى زمن ظهور الإسلام، فالإثنينيات، من

[1]- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، مرجع سبق ذكره، ص5-6.

خير وشر ونور وظلام وولادة وموت وتسام وتسافل...الخ قد وردت في نصوص النفري، بل هي أركان فلسفته في التخلص والوصول إلى الحقيقية"[1].

فالتأثر حاضر وبقوة في نصوص النفري سواء من المصادر الدينية أو من خلال الموارد الثقافية، وكل هذا يدل على سعة اطلاع التي يتميز بها هذا الأديب الفذ، فإذا تصفحنا ودققنا في كتاب "المواقف والمخاطبات" الذي يعتبر تراثا إبداعيا للنفري الذي يجسد مذهبه الصوفي، فإننا لا نجد فيه أقوال الصحابة والتابعين، ولا أقوال الأئمة والأولياء المعروفين في التصوف الإسلامي، في حين نجد أكثر المتصوفة مولعون بالاقتباس من أقوال الصحابة والتابعين وأقوال المتصوفة، فالشيخ النفري يتميّز عن غيره من المتصوفة الذين جاءوا من قبله في كونه لا يورد في كتابه ذكر لأسماء الأنبياء أو الرسل أو الأئمة والأولياء الصالحين والملاحظ عنه أيضا أنه لم يورد أي حديث صريح أو كلام يحمل تلميح للمرأة أو الصفات المتعلقة بها وهذا الأمر يخالف به السواد الأعظم من جمهور المتصوفة الذين يوردون المرأة كرمز للحب الإلهي.

فقد تبيّن ممّا سبق تقريره وسرده أنّ النفري لم يستشهد في مواقفه الصوفية بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية إلاّ القليل منها، ولا على أقوال الصحابة والتابعين، ولا على أقوال الأئمة والمتصوفة المعروفين، إلاّ أنه استعمل بعض الألفاظ والاشتقاقات ونفس الصياغات اللغوية للكتب المقدسة، فإنّه قد وظّف بعض الآيات القرآنية في بعض المقاطع السردية والتي قد أدخلت المكتوب القرآني في سيرورة خيالية، فإنّه استعمل بعض الألفاظ الصوفية المعروفة كالعارف، الوجد، القرب، المقام، الحال وغيرها من المصطلحات الصوفية المعروفة عند أهل الذوق ومثال ذلك قوله في عدة نصوص:

*بالنسبة لتوظيفه للقرب

[1]- وليد عبد الله، الفكر الصوفي عند النفري، مرجع سبق ذكره.

" أوقفني في القرب وقال لي ما مني شيء أبعد من شيء ولا مني شيء أقرب من شيء إلاّ على حكم إثباتي له في القرب والبعد " / " وقال لي البعد تعرفه بالقرب ، والقرب تعرفه بالوجود وأنا الذي لا يرومه القرب، ولا ينتهي إليه الوجود " /." وقال لي أنا القريب لا كقرب الشيء من الشيء وأنا العيد لا كبعد الشيء من الشيء " /."وقال لي قربك لا هو بعدك و بعدك لا هو قربك، وأنا القريب البعيد قربا هو البعد وبعدا هو القرب"[1].

". أمّا بالنسبة لذكره وتوظيفه للعارفين والعارف:

" وقال لي أرواح العارفين لا كالأرواح وأجسامهم لا كالأجسام "[2].

" وقال لي الواقفون أهلي، والعارفون أهل معرفتي "[3].

أمّا بالنسبة لتوظيفه كلمة الوجد فمثال ذلك في الوقفة 18 حيث يقول: " معارف كل شيء توجد به وأسماؤه من معارفه، وإذا سقطت معارف الشيء سقط الوجد به "[4].

وقال أيضا : " أوقفني في السكينة وقال لي هي الوجد بي أثبت ما أثبت ومحا ما محا "[5].

وقال: " يا عبد الوجد بما دوني سترة عن الوجد بي وبحسب السترة عن الوجد بي تأخذ منك البادیات كنت من أهلها أم لم تكن من أهله "[6].

[1]- النفري، كتاب المواقف و المخاطبات، مصدر سبق ذكره، موقف القرب، ص02-03.
[2]- المصدر السابق، موقف الكبرياء، ص04.
[3]- المصدر السابق، موقف الوقفة، ص12-16.
[4]- المصدر السابق، موقف التقرير، ص38.
[5]- المصدر السابق، الموقف54، ص 88.
[6]- المصدر السابق، المخاطبة01، ص 147.

خاتمـــــــــــــــ

الخاتمة:

ولانه لكل مبدأ منتهى ,فإننا نصل وإياكم الى نهاية بحثنا ,واضعين كل ما توصلنا اليه من خلال محطات دراستنا في هاته النقاط ,وهي كالاتي:

1ــ اسال موضوع التصوف الكثير من الحبر ,وجذب حوله العديد من الدارسين والباحثين ,الذين تناولوه بالبحث والتقصي وقدموا الكثير من التعريفات والمفاهيم ,نجم عنها تشكيل قراءات ورؤى جديدة.

2ــ التصوف لايعنى بعصر بعينه , والانسانية ليست حديثة العهد به ,فقد عرفته البشرية منذ عصور خلت وازمنة ولت ,وهو ظاهرة روحية تتلبس ذات الصوفي فينجر عنها سمو وارتقاء من عالم الخلق الى ملكوت الحق.

3ــ يعد النفري من بين الاسماء التي خلد اسمها في صرح التصوف تاركا ورائه ارثا قيما وثمينا لمن ساروا على دربه .

4ــ المتجول في مؤلف النفري يتلمس في ثناياه عمق النظر ,وحدة البصر ,

والجدة في الطرح وصدق الشعور.

5ــ تضمنت مواقف ومخاطبات النفري العديد من المعاني والمصطلحات الصوفية ,والتي تشكل نقاط تلاقي عند اغلب المؤلفات التي تدور في فلك الذوق العرفاني.

6ــ اصطبغت لغة الخطاب الصوفي الخاصة بالنفري بالكثير من الغموض الممزوج بالتعقيد , كما انها حملت ابعاد ابعاد دلالية وقرائية مختلفة ومتباينة .

7ــ يتميز الخطاب الصوفي بكونه خطابا عميقا على خلاف مايترائ للبعض ,فالقراءة السطحية ليست كفيلة بإستخراج المعاني الخفية والمستترة ,لكونه نصا يتضمن المعانى الظاهرة الواضحة , ومعاني خفية الباطنية والمسافة على قدر الماشي.

8ــ زخرت لغة النفري في مؤلفه بالثنائيات المتناقضة التي قامت على الجمع بين السلب والايجاب ,وهذا راجع لتأثره الواضح بفلسفة الماثنويات ,وهذا التضاد دائم الحضور في الاثار الصوفية ,بسبب الصراع الحاصل بين المادة والروح .

9ــ حملت مواقف ومخاطبات النفري سمات تجديدية جعلت منه اديبا صوفيا منفردا في رؤيته ونظرته للوجود والموجودات ,حيث اسس معالم فلسفة صوفية لزالت قائمة لحد الان ,والمتجول بين مواقفه يدرك بأنه لم يخلو من النبرة الدينية التي اكتست معظم صفحاته .

10ــ تفردت الكتابة النفرية عن غيرها في كونها مزجت بين الشعر والثر في بوتقة واحدة ,الامر الذي بلور الخامات الفعلية لظهور قصيدة النثر فيما بعد .

11ــ تعددت الروافد والمناهل التي تأثر بها النفري وهذا راجع الى سعة الاطلاع والاحاطة الواسعة ,التي اكسبته تفردا متميزا عن من سبقه ,ومن عاصره على حد سواء.

12ــ تبين بأن الادب يخدم التصوف ,وبهذا يمكن القول التصوف ذو صلة وثيقة بالادب.

ــ وفي الختام يمكننا القول: إن هذه النقاط التي توقفنا عندها هي جهد المقل لا أكثر,وقد يتراءى لغيرنا مالم ندركه نحن,تلك هي سمة البشر التي جبلت على النقص ,وما الكمال إلا للواحد الأحد ,داعين الله أن نكون قد افدنا وأنرنا الدرب ولو بشق لمن رافقنا في محطات دراستنا المتواضعة ,فلله الحمد إن أصبنا ,ولله الحمد إن أخطئنا ,ففي الأخير أننا نلنا شرف المحاولة .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: كتاب محمد بن عبد الجبار النفري وهو المصدر الأساسي في دراسة موضوعنا.

- محمد بن عبد الجبار النفري، المواقف والمخاطبات، عناية وتصحيح واهتمام آرثر يوحنا آربري، ط1، مكتبة المتنبي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1934م.

ثانيا: مراجع

1*الكتب:

- د.عبد المنعم خفاجة، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، (ب.ط).

- زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

- أبو القاسم جار الله محمود عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تح.محمد باسل، عين السود، دار الكتاب الهملية، بيروت- لبنان، 1998.

- ماسينوس و مصطفى عبد الرزاق، التصوف، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1914م.

- عفيف الدين التلمساني، شرح مواقف النفري، تحقيق جمال المرزوقي، تصدير.عاطف العراقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2000م.

- جمال المرزوقي، فلسفة التصوف (محمد بن عبد الجبار النفري)، بيروت، دار التنوير، 2009م.

- أبي نصر السراج الطوسي، اللمع، تحقيق د.عبد الحليم محمود و د.طه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة مصر، مكتبة المتنبي بغداد.

- عاطف جودت نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1978م.

- عمر أحمد بوقرورة، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، دار الهدى،(د.ط)، (د.ت).

- هيثم الجنابي، حكمة الروح الصوفي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 2001م.

- ادونيس، الصوفية و السوريالية، دار الساقي، ط2، بيروت، 2006م.

-ادونيس الشعرية العربية، دار الاداب بيروت 1975م

- يوسف سامي اليوسف، مقدمة للنفري، دراسة في فكر وتصوف محمد عبد الجبار النفري، مؤسسة علاء الدين للطباعة والنشر، (ب.ط)، 2004م.

- أبي عبد الله محمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمديم لما تضمنه من السنة وآي القرآن، تحقيق د.عبد الله بن عبد المحسن التركي القرطبي، ط1، جزء 19، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، 1427هـ/2006م.

- جمال أحمد سعيد المرزوقي، فلسفة التصوف، (محمد عبد الجبار بن الحسن النفري)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والنشر، 2009م.

- نيكلسون، الصوفية في الإسلام، ترجمة وتعليق نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، مصر، 1371هـ/1951م.

- ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت- لبنان، (د.ت).

- يوسف سامي اليوسف، الفكر والتصوف في فلسفة النفري، ط1، دار النشر رسلان، 2016م.

- علي زيعور، العقلية الصوفية ونفسانية التصوف، دار الطليعة، 1979م.

- سلمان بشير، بين مواقف النفري ومشاهد ابن العربي (السفر والرجوع إلى الحق والخلق)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2020م.

- - نصر حامد، هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2002م.

2* معاجم وقواميس:

- أبو منظور، لسان العرب، المجلد الأول، بيروت- لبنان، (ب.س).

- عبد الرزاق الكاشاني، معجم وإصطلاحات الصوفية، تحقيق د.عبد العال شاهين، ط1، دار المنار، القاهرة، 1992.

- الجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح، ط1، دار المعرفة، بيروت، 2005.

3* مذكرات الماجستير وأطروحات الدكتوراه:

- هدى فاطمة الزهراء، جمالية الرمز في الشعر الصوفي (محي الدين ابن عربي نموذجا)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، تخصص أدب عربي حديث، قسم اللغة العربية وآدابها، تلمسان.

- نصيرة صوالح، إشكالية التلقي في الخطاب الصوفي، المواقف للأمير عبد القادر، نموذجا، رسالة الماجستير جامعة تلمسان، 2005م.

- رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، نقلا عن ميلود عزوز، المصطلح الصوفي بين الدلالة المعجمية والدلالة العرفانية، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة تيارت،2008م.

- بن عكنون سامية، الاشتغال الأنطوبلاغي في كتاب المواقف لعبد الجبار النفري، مذكرة لنيل أطروحة الدكتوراه، جامعة مولود معمري-تيزي وزو كلية الآداب والعلوم الانسانية، (ب.س).

4* الدواوين:

- ديوان الحلاج ومعه أخباره وكتاب الطواسين، وضع الحواشي و تعليق. محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت.

- محي الدين بن عربي، ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق، دار الكتب العلمية، ط2.

ثالثا: الدوريات والمواقع الالكترونية

1- الدوريات

- منى جميات، لغة الخطاب الصوفي (من هو في المعنى تعددية التأويل)، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، العدد15، 2015.

- د.أحمد بوزيان، بلاغة الصمت في الخطاب الصوفي، قراءة في مذاق البدايات، جامعة عبد الرحمان بن خلدون تيارت، الجزائر، مجلة الأثر العدد18، جوان 2013م.

- حمزة حمادة، الرمز بين الرؤية الصوفية والإبداع الفني، أزمير ، تركيا، 2014م.

- عمامرة الساسي، مفهوم التصوف وتطوره، جامعة الوادي، 2012.

2-المواقع الالكترونية

- وليد عبد الله، الفكر الصوفي عند النفري (تأمل في مقامي الوقفة والرؤيا) www.Maaber.org.

- المواقف والمخاطبات وأثرها في حركة الشعر الحديث

.www.alkhaleej.ae

- شبكة ضياء للمؤثرات والدراسات، بلاغة الرمز في التائية الكبرى لابن الفارض، د.موفق مجيد ليلو...Diae.net.

- الوجد عند الصوفية

.www.nafahat-tarik.com

-الانترنت www.alkhaleej.ae/med!detailed.2019/05/31

- الانترنت www.tawaseen.com/?p2272.2015/11/22

- عبدو وازن www.@ljmal.com2010

- المفاهيم النظرية للأنواع الشعرية في شعر ما خارج الوزن (قصيدة الشعر الحر)، 1يوليو 1998.

www.nizwa.com

- الانترنت www.maaber.erg/tenth.issve/spiri tual.traditions.2htm.

رابعا: الآيات القرآنية والأحاديث النبوية:

- سورة الشورى، الآية 11.

- سورة الشورى، الآية 51.

- سورة الأعراف، الآية 143.

- سورة النمل، الآية 20.

- سورة ق، الآية 16.

- سورة يس، الآية 82.

- سورة البقرة، الآية 117.

- سورة الطور، الآية 09.

- سورة الكهف، الآية 56.

- سورة الشعراء، الآية 9 والآية 217.

- سورة العنكبوت، الآية 69.

- سورة إبراهيم، الآية 24.

- سورة الفتح، الآية 10.

فهرس المحتويات:

الإهداء

شكر وعرفان

المقدمة

المدخل: بين الفكر والأدب

الفصل الأول: مفاهيم ومصطلحات

المبحث الأول: ماهية التصوف

المطلب1: المعنى اللغوي

المطلب2: المعنى الاصطلاحي

المبحث الثاني: مفهوم التجليات

المطلب1: المعنى اللغوي

المطلب2: المعنى الاصطلاحي

المبحث الثالث: إطلالة عن حياة النفري ومؤلفه المواقف والمخاطبات

المطلب1: حياته الغامضة

المطلب2: كتابه المواقف والمخاطبات

الفصل الثاني: التجليات الصوفية في الخطاب الشعري للنفري

المبحث الأول: لغة الخطاب الصوفي

المطلب1: الغموض والتعقيد

المطلب2: معاني ومصطلحات صوفية

المبحث الثاني: جمالية الرمز

المطلب1: الرمز عند الصوفية